الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
أكاديمية التغيير
Academy of Change

سلسلة ثورة العقول

زلزال العقول

تأليف:
م. وائل عادل

مكتبة
هؤمن قريش

زلزال العقول

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة ثورة العقول

زلزال العقول

تأليف

م. وائل عادل

أكاديمية التغيير
Academy of Change
AOC

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

مكتبة
مؤمن قريش

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-140-2

All rights reserved. It may be reproduced
with permission of the Academy of Change

The authors have asserted their right under the
Copyright, Design and Patents Act 1988,
to be identified as the Authors of this work.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

British Library Cataloguing in Publication Data.
A Catalogue record for this title is available from
the British Library.

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

أكاديمية التغيير
Academy of Change

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

للتواصل مع أكاديمية التغيير (AOC)
بريد إلكتروني: info@taghier.org
www.taghier.org

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

المحتويات

مقدمة 7

زلزال العقول 9

الكمبيوتر قال لي: عقلك يحتاج إلى ترتيب..... 11

اركب وبعدين نشوف..... 15

جووول 19

المفتاح مش هيفتح..... 23

لا تعبر الشارع وحدك 27

لعبة المحترفين..... 31

بلطجية الفكر 35

الفيلم مش حقيقي..... 39

طلعت الأول زمان..... 43

البلياردو 45

الصورة مقطوعة!..... 49

صراع الأحلام..... 53

نظارة القائد..... 57

الطريق طويل..... 61

إلى الواقفين في الطابور 65
استراتيجية التحليق 67
عسكري المرور 71
انتبه إنه فوق عينيك 75
أهلاً بالمجانين 79
الخاتمة 83

مقدمة

يعد الاعتناء بتطوير منهجيات التفكير من صميم عمل أكاديمية التغـــير، لأن أي تحول يحدث على أرض الواقع يسبقه تحول في فكر القـــائم علـــى صناعة التحول، فنحن عندما نعمل للتأسيس لمستقبل جديد، إنما نؤسس له وفق معطيات وتصورات في عقولنا، فإن كانت هذه التصورات إيجابية وناضجة وفعالة، انعكست على الواقع بعمل حـــي يرتقي بالمجتمعات وينميها، وإن كانت هذه التصورات مشوهة أو مضطربة، انعكست في ممارسات مذبذبة ومضطربة.

لـــذلك فإن ثورة العقول هي بداية التغيير، وتأتي سلسلة ثورة العقـــول لتـــسهم في إحداث هذا التغيير، وهذه الثورة داخل العقل، لـــتطلق أقـــصى طاقاتـــه لينتزع المستقبل من فم المستحيل، إن ثورة العقول هي التي تمنح الإنسان بريق الفكرة، وبها تتقدم الأمم وتنهض المجتمعات.

كتيب زلزال العقول

ويـــأتي كتـــيب "زلزال العقول" كأحد حلقات هذه السلسلة، ويعـــالج بالأساس منهجيات التفكير، ويسلط الضوء على زوايا دقيقة من نمط التفكير الحي الذي ينقل المجتمعات نقلات نوعية، كما يعتبر هـــذا الكتيب زلزالاً لأنه يرج العقل رجاً، ويعيد ترتيب الأفكار فيه بشكل جديد، فيهذب أفكاراً، ويضيف أفكاراً، ويجتث أحياناً بعض الأفكار التي لا يصلح بها عقل تغييري.

ويحتوي الكتيب على عشرين عشر مقالاً تركز على العقل وأنماط التفكير، وقد صيغت بأسلوب سهل وشيق، وبلغة خفيفة عميقة، وكان الحرص ألا يكون حجم الكتيب كبيراً، حتى يسهل تداوله ويتسنى استصحابه في أي مكان.

وتمت معالجة الأفكار عبر مواقف حياتية، حتى لا تنتهي علاقة القاريء بالأفكار بانتهاء القراءة، لأنه سيتذكر هذه المواقف كلما تعرض لموقف مشابه، ومن ثم سيستدعي الفكرة المرتبطة بالموقف بسهولة.

ونشكر كل من ساهم في إنجاز هذا العمل، ونخص بالشكر هنا فريق الجزيرة توك الذي رعا الكثير من هذه المقالات، وكان أول ناشر لمعظمها في موقعه "الجزيرة توك".

ونسأل الله أن يسهم هذا الجهد في تنمية العقل العربي، ودعم منهجيات تفكيره الصالحة، ومعالجة منهجيات التفكير التي تحول دون التحول الحضاري.

قسم الدراسات والأبحاث
أكاديمية التغيير

زلزال العقول

الزلزال قادم لا محالة

عـــندما ننظر إلى خارطة العالم، ونرى القارات مستقرة لتشكل جزيرة عالمية تحيط بها المياه من كل جانب، ندرك عظم الدور الذي تتطلبه التحولات الكبرى. فالأرض لم تكن مجزأة بهذا الشكل، ودار حوار وتفاوض مستمر بين اليابسة والماء، ويظل هذا الحوار قائماً ما بقيت التفاعلات قائمة بين مكونات وعناصر الكون.

ولولا الهزات والرجات والتصدعات لظلت الأرض كتلة واحدة، ولمـــا رأيـــنا مغازلة المياه لليابسة، وتوطنها كحاجز فاصل بين القارات لترسم لنا لوحة رائعة لمشهد القارات الست متربعة على عرش الماء.

وتمـــتلك الـــدول التي تعاني من زلازل متكررة مراصد للتنبؤ بحدوث الزلزال، لتحذر الناس أن "الزلزال قادم لا محالة".

وتحـــتاج التحولات الحضارية بدورها زلازل تعيد تشكيل وجه الإنسانية، لترسم عليه أرقى الألوان وأبهجها، وتمنحه قسمات الأمل والإصرار.

وحيـــنما تزداد الضغوط على الأمم، وتتعاظم التحديات المفروضة علـــيها، يتنبؤ علماء الاجتماع بأن زلزال العقول حتمي الحدوث، وأنه قـــادم لا محالة، حيث يعاد تشكيل العقل بشكل جديد، ويتغير تعريف الممكـــن والمـــستحيل، وتراجع المسلمات وأنماط التفكير السابقة التي تـــولدت في ظلـــها هذه التحديات، هذا الزلزال هو الذي يجدد حيوية

العقل، ويعيد فرز الأفكار، ويبدع المخرج من الأوضاع التي تبدو قاهرة.

ولابد للعقل من زلزال بين الحين والآخر، لأن استقرار الأفكار فيه فترة طويلة لا يدل بالضرورة على النضج؛ بل قد يعني الجمود على ما ألفه، لذلك يجب أن يرتج بين الحين والآخر رجات قوية يعيد من خلالها فرز أفكاره ومراجعة مسلماته، ولا عجب إن أبقى على بعض الأفكار التي يصلح بها العقل، وشذب البعض الآخر وطوره، واجتث مجموعة أخرى من الأفكار بلا رجعة، تلك الأفكار التي تعيق الحراك الجاد نحو التحول.

إنه زلزال حقيقي، يضمن حيوية العقل، ويبدو مؤكد الحدوث مع عجز نمط التفكير السابق عن إيجاد حلول وبدائل للتحديات، وتطلع الناس إلى مخرج.

وإذا تأملنا حياة المصلحين والمفكرين والقادة الذي أحدثوا تحولات تاريخية لوجدنا أنهم زلزلوا العقول، إما بالتعرض للمعتقدات السابقة بالنقد، أو مقاومة المسلمات الخاطئة مثل توهم أن الأرض مسطحة، أو تغيير أنماط التفكير والنظر إلى شكل المجتمع الأفضل، أو طرح أطروحات جديدة جذابة تخاطب أشواق الجماهير، أو القيام بمبادرات تؤكد القدرة على إحداث التحولات على الأرض. لقد اتخذوا من عقول الجماهير هدفاً، وصاغوا من القول والفعل أدوات لإحداث الرجات، إنهم مهندسو "تسونامي" العقول الجارف، الذي يغير قناعات الجماهير، لتنتقل من الشعور بالعجز إلى الإيمان بإمكانية الفعل، وتسرع إلى مغادرة مقعد المتفرج إلى مقعد الفاعل.

إننا إذا أردنا تغيير وجه خارطة الفعل السياسي والاجتماعي، فلا نبالغ إذ نقول، أنه لابد من زلزلة العقول.

الكمبيوتر قال لي:
عقلك يحتاج إلى ترتيب

أستطيع أن أرى عقلك من الداخل من خلال سلوكك

فـــتحت الحاسب (الكمبيوتر) هذا الصباح... كنت أبحث عن ملـــف في غاية الأهمية... وجدت ملفات كثيرة (files) لم توضع في مكان يجمعها (folder)، كانت متناثرة... مختلطة... تتهكم وتقسم أن تحـــيرني... تتوعدني بأن يعلو ضغط الدم عندي... تتحداني أنني ســـألجأ إلى كوب من الشاي متوهماً أنه طوق النجاة... وبالفعل... هرعت لأعد كوب الشاي.. قبل أن أعيد خوض صراع البحث عن الملف!!

بـــدأ الـــبخار يتصاعد حتى أوشك أن يداعب جبهتي.. حينها فكرت.. ما ضرني لو كنت خصصت حافظة(folder) لكل موضوع أضـــع فيه كل الملفات المتعلقة به، لماذا لم أخصص حافظة(folder) للأدب، وأخرى للسياسة، وثالثة للأخبار ورابعة للفن... وخامسة.. وسادســـة.. فجأة.. راعني سؤال تطفل إلى عقلي... ترى!!... هل المعلـــومات في عقلك مرتبة أم أنها متناثرة بهذا الشكل المزري؟؟ وإذا كانـــت بهذا الشكل!! فكيف أتخذ قراراتي في حياتي وهي مبنية على استدعاء سريع لهذه المعلومات من العقل؟؟!

أصـــابني الذهول... وأحاطت بي الحيرة، نعم.. كثيراً ما بذلت

جهداً في استدعاء معلومة أعرفها وسمعتها من قبل، لكن عقلي لا يسعفني، وكم من مرة وجدتني عاجزاً عن التعبير عن شيء أعرفه، وكم من قرار أعياني إطلاق سراحه من حيز الفكر إلى الواقع وشعرت بألم من التفكير!! وكم من... وكم من... معقول؟!!.. هل ما يراود عقلي الآن صحيحاً؟؟!!... لا... هذا أمر لا يمكن تخيله...

يبدو أن العقل مليء بالملفات (files) التي تحتاج حافظات (folders) تجمعها، ليسهل استدعاء المعلومة، ويسهل حفظ المعلومات الواردة من الخارج في أماكنها الصحيحة، ومن ثم استخدامها. والإنسان يحتاج أن ينظم خارطته المعرفية، هذه الخارطة التي ينتج عنها - في الأخير - السلوك البشري، وكلنا نتصرف وفق مدخلات معينة تدخل عقولنا، تصف لنا الواقع والذات والآخر، فإذا كانت المدخلات خاطئة سينشأ بالأساس سلوك خاطيء، وإذا كانت مدخلات صحيحة وغير مرتبة تضطرب الخارطة المعرفية وتتشابك المعلومات ويساء تفسيرها، ونشهد هذا الاضطراب في السلوك في واقعنا، ويتجلى بوضوح هذا التشويش في خلل في الفعل السياسي والتحرك في فراغ استراتيجي وأزمة في اتخاذ القرار، ونلمسه كذلك في شكل تعثر في الحركة على بساط النهضة ومزاحمة الأمم مقاعد الصدارة.

إننا نستطيع أن نقول أن شكل حركة وطبيعة سلوك الإنسان، هو تطابق لطبيعة المعلومات وشكل ترتيبها في عقله. وبحسب النتوءات في هذه الخارطة - سواء في المضمون أو الترتيب - ستكون النتوءات في السلوك. لذلك أيضاً بإمكاني أن أزعم أنني أستطيع أن أرى عقلك من الداخل من خلال سلوكك.

وبينما أنا شارد في هذه الأفكار؛ إذا بي أجدني وقد غطى البخار جبهتي، لكنه كشف لي طرفاً من عجائب العقل، عدت إلى حاسبي الحبيب، وتأملت ملفاته المتناثرة، وبدأت أصنع الحافظات (folders)، وأرتب ملفاتي... الآن صار استدعاء المعلومة أسهل، وبالمثل حفظ المعلومات الجديدة وأرشفتها.

طرق باب الغرفة، فإذا بصديق لي يأتيني ومعه جهاز الحاسب الخاص، سألني أن أشاركه في أحد المشاريع...

قلت له: ما هدف المشروع؟

قال: أن نشتري وحدة تصوير.

قلت له: لا.. لا أسألك عن الوسيلة.. أسألك عن هدف المشروع..

قال: أن نشتري وحدة كاملة مع نظام صوتي..

قلت له: لا.. هذا أيضاً ليس الهدف.. أنت لا تجيبني على سؤالي... أسألك عن الهدف.. الهدف كأن تقول لي "نحن نريد أن نفوز في مسابقة الجزيرة لأفضل لقطة، ووسيلتنا لذلك شراء وحدة كاملة لنضمن جودة عالية.."

قال:...

قلت:...

قال:...

قلت:...

قال:...

قلت:...

قال:...

قلت: لا.. هذا أيضاً ليس الهدف.. أنت لم تجبني على سؤالي... أسألك عن الهدف..

ثم قلت له: افتح حاسبك... أرني إياه..

فرأيت الملفات متناثرة في كل مكان..!!!!

اركب... وبعدين نشوف

عندما تكون ثقافة الميكروباصات هي القائدة

اررركب... اركب... اركب...

هذا هو الهتاف الذي انطلق من حنجرة سائق الميكروباص... كان الوقت حاراً... طال الانتظار... فقررت أن أستجيب للنداء...

سألت السائق: هل ستذهب إلى "دريم لاند"؟

أجابني: قل باسم الله... "اركب وبعدين نشوف".

فسميت الله...

ثم ركبت... ولم يكن الميكروباص مزدحماً...

انطلق السائق يشق الشوارع، وبدأ الناس يخرجون من الشقوق ليركبوا معه... اكتمل عدد الركاب، واستمر شحن الميكروباص بالبشر... سألت السائق أن يكتفي بعدد قليل من الواقفين لأن الطريق طويل، فنظر إليَّ في مرآته الأمامية نظرة ازدراء، بعد أن عانقت شفته العليا أنفه. بدأت الأعداد تتزايد... أصبح حذائي هو الممر المفضل للركاب.. وجوههم تتدلى عليَّ في مشهد عجيب... تحليت بالصبر الجميل... بدأت أنزف عرقاً... يتشاجر البعض نتيجة التكدس... يرتفع السباب... يبكى الطفل الرضيع... وبدأت رحلة الأحلام تسوق إليَّ نبأ احتضارها...

سألت السائق: إلى أين تقودنا؟؟

قـــال: هـــذه السيارة ركبت كشفاتها الجديدة بالأمس، كما زودتهـــا بمحـــرك فائق السرعة، وطلاؤها لم يمر عليه أسبوع، وهي أسرع سيارة موجودة في...

قاطعـــته: نعـــم.. وهـــذا ما جذبني لركوبها... ولكن إلى أين ستذهب بهذا المخزون البشري؟؟ ولماذا تسمح بركوب المزيد؟؟ رائع جداً أن ننطلق بأقصى سرعة، ولكن.. إلى أين؟؟!!

رد مغـــضباً: سآخذكم إلى وسط البلد... ومن هناك يستطيع كل فرد أن يركب ما يريد، ويذهب إلى حيث يشاء.

نـــــزلت هـــذه العـــبارات كالصاعقة على الجميع... صرخ الـــركاب في السائق... هذا يقول ألن تذهب إلى كذا؟ وذاك يصيح ألـــن توصلني إلى كذا؟؟ وآخر يشيح بذراعيه مظهراً سخطه، ليستقر كـــوعه في الـــنهاية في فمي... كان كل راكب يريد أن يذهب إلى وجهة مختلفة تماماً عن الآخر، وأخذت حصتي من الاستفسار متسائلاً -بعـــد أن لفظت كوع هذا المتحمس: إذن.. لن تأخذني إلى "دريم لاند"؟؟؟!!!

فتمـــتم في بـــرود بذكره الذي رتله مع كل سائل سبقني: (لا طبعاً.. ألم أقل لك "اركب وبعدين نشوف"؟؟!!).

طلبت منه التوقف... نـــزلت من الميكروباص... والتفت إليه وهـــو يواصل صناعة الشقوق في الشوارع... سمعته من بعيد يصطاد ضـــحاياه من المارة المساكين بندائه الفتان... اررركب... اركب... اركب...

قلـــت في نفسي: "ما أكثر هذا النمط من القيادة... الذي يتبع فلـــسفة "اركـــب وبعدين نشوف"!!! نراه على مستويات شتى من

الفعـــل القيادي في أماكن كثيرة وأزمان مختلفة. أسلوب واحد، وإن اختلف نوع السيارة. نراه حين تسوق بعض الحكومات شعوبها نحو اللاوجهة. وعندما تتكدس أحزاب وحركات بأعداد لا تعرف كيف ستصل لأهدافها أو لعلها لم تتفق على هدف، ويتكرر نفس المشهد في عـــدد مـــن المؤســـسات والمشاريع، لتكون المحصلة ظهور نفس الأعـــراض، المعانـــاة من صراخ الرضيع بعد فترة، وتفجرالمشاحنات كاســـتجابة طبيعية للتخمة البشرية، ثم تنشغل القيادة بإطفاء الحرائق بـــدلاً مـــن إشـــعال الهمم. إنها أعراض طبيعية عندما تكون ثقافة الميكروباصات هي السائدة... والقائدة... وتصير السياسة المعلنة... "اركب وبعدين نشوف"...

إن الأمـــر الذي ميز معظم قادة الأمم التي نهضت أنهم يعرفون مـــاذا يريدون، وكيف سيصلون إلى ما يريدون. كانوا رماة يتقنون تحديد الهدف... رسامين... يجيدون رسم الطرق، ونحاتين... يتقنون نحـــت الأمـــل في النفوس اليائسة... الأمر الذي تَغَنَّى به نابليون... "القائد هو بائع الأمل"...

العجـــيب أن بقـــية الـــركاب لم ينـــــزلوا رغم احتجاجهم الواسع... وآثروا الركوب... لمجرد الركوب... أو لعلهم ارتضوا أن يذهبوا إلى حيث يعرف السائق... لا إلى حيث يريدون!!

ونصيحتي لكل راكب
"قبل أن يركب... يشوف"
ولا يستسلم ذهنياً لفكرة
"اركب.. وبعدين نشوف"

جووووول

إذا حددنا الثلاث خشبات.. يوشك أن تهتز الشباك

كـــنت أدون بعض الملاحظات حول أسباب نهوض الأمم... أتحـــدث مـــع كـــتبي ودراساتي.. وأسأل عظماء التاريخ عن أحلام صـــاغوها واقعـــاً... أطللت من النافذة لأختلس شيئاً من الراحة... تعجـــبت!! الشوارع مجدبة من المارة..!! تذكرت.. فثمة مبارة كرة قـــدم احتشد لها الناس. وبينما أنا مستغرق في القراءة والتدوين؛ إذا بـــصرخة تـــرج المديـــنة... (جووول)... كان صوتاً مدوياً أعلنته الجماهير في الاستاد، والمشاهدون في البيوت والمقاهي والنوادي وفي كـــل مكـــان، هتاف واحد... في وقت واحد... وكلمة واحدة... جووول.

تعجـــبت لهـــذا الـــسلوك الجمعي المنضبط الذي لم يتخلف عـــنه أحد... وتساءلت عن سر الإجماع، ووحدة الهتاف!! كثيراً مـــا تجاهلـــت مـــباريات كـــرة القدم، لكن هذا التوحد المعلن بـــشكل صـــريح... أسرني، فانضممت للمشاهدين عبر شاشات التلفاز..

شـــاهدت إعـــادة الهـــدف... اهتزت الشبكة طرباً... وأطلق الجمهور صيحته، ليبدأ عقلي يطلق كامن الأفكار...

الفكـــرة الأولى: إن كلمة Goal التي صرخ بها الجمهور تعني الهدف، أي أن الناس كانت تجمع على أن هناك هدفاً حققه فريق ما.

الفكـــرة الثانـــية: هـــذا الهـــدف محدد جداً فإطاره "الثلاث خشبات"، وإذا لامست الكرة الخشبة وارتدت فلا خلاف على عدم تسجيل الهدف، والقضية لا تحتاج إلى إقناع.

الفكـــرة الثالثة: إذا ارتجت الشبكة بعد اختراق الكرة لها، فإن الهدف هنا محقق لا شك فيه.

الفكـــرة الـــرابعة: الهـــدف يعترف به الفريق المسدِّد والخصم والجمهور، ولا يتشكك فيه أحد، اللهم إلا في الحالات التي يتم فيها مخالفـــة القواعد، أو تكون الكرة على خط المرمى، فيُشك في كونها حققت هدفاً أم لا.

الفكرة الخامسة... السادسة... السابعة... أفكار كثيرة تدفقت ليجري قلمي على بساط ملعب التدوين. وجدت في لعبة كرة القدم عجباً، فليس بالضرورة أن من بذل جهداً أكبر هو الذي سيفوز، ولا يوجد ضمان بحتمية انتصار من دافع عن مرماه بجسارة.. لكنه قد لا يُهزم، وليس من صوَّب كرات كثيرة لابد أن ينال تصفيق الجمهور، بـــل قـــد يصب عليه وابل اللعنات إن كان معظمها يتجاوز الثلاث خـــشبات، فالجماهير لا تجامل، ولا تمنح صرختها إلا لهدف واضح. إن الفـــريق الـــذي سيفوز بالجمهور هو من استطاع تحديد الثلاث خشبات، ثم تمكن من التسديد السليم، ليجبر المشاهدين على الصراخ "جـــوووول"... إما صرخة نصر المؤيدين، أو صرخة انكسار مؤيدي الفريق المنافس.

فكرت... هل تمتلك أمتنا أهدافاً محددة؟؟ حكومات وأحزاب ومؤسسات وأصحاب مشاريع؟؟ هل هناك إجماع على تحديد الثلاث خـــشبات، وفي أي جزء من الملعب تكون، أم أننا أحياناً نصوب في

مرمانا؟؟ هل حُددت معايير الفوز أم صار أي تحرك يعتبر إنجازاً؟؟.. وهل تدخل كراتنا إلى المرمى بشكل لا يدع مجالاً للشك أم أنها تطيش أحياناً، وفي حالات أخرى تعتاد الوقوف على خط المرمى ليصبح الهدف بين القيل والقال... وعرضة للطعن والشك؟؟

يبذل عشاق التحول الحضاري الجهد الكبير، لكنهم في النهاية قد يضعون الكرة على خط المرمى، ليدور جدل حول مدى قربها أو بعدها من تحقيق أهدافها، فتعزف الجماهير عن التشجيع، ويفتر الحماس، لأن الناس لا تشجع إلا الفرق الناجحة، التي تحسن هز الشباك بقوة.

وجدت أن محاولة استبدال الثلاث خشبات بأشياء أخرى لجذب المشجعين أمر عديم الفائدة، فاستعراض المهارات في الملعب يسعد الجمهور، لكنه لا يخدعه، لأن السؤال الأساسي بعد انتهاء المباراة "من الفائز؟؟"

إن الدور الأول لقادة النهضة - في كل مجال وعلى جميع المستويات- هو تعريف الهدف بدقة، ورسم حدوده بوضوح، حتى يمكن تقييم الممارسات المبذولة للوصول إليه، وإذا حدث ذلك يوشك في يوم ما أن نسمع هذا الإجماع... "جووول"... حتى من خصومنا.

المفتاح مش هيفتح

إنني أدعو إلى استراتيجية الاقتحام

"المفـتاح مش هيفتح"... هذا ما قلته لجدي وأنا أستصحبه إلى بيـته بعـد أن تم تجديـده، كـنت على يقين أن المفتاح لن يفتح...

أخرج مفتاحه من جيبه... فقلت له: "المفتاح مش هيفتح".

بحـث في جيبه عن آخر... قلت له بنبرة الواثق: "المفتاح مش هيفتح".

قال بعفوية: كنت أفتح به دائماً... فهمست في أذنه: "المفتاح مش هيفتح".

نـادى ابنه، وسأله نسخة من المفتاح.. فأجاب الابن: "المفتاح مش هيفتح".

كلم ابنته عبر الهاتف المحمول... راجياً أن يجد عندها نسخة من المفتاح.. فأجابت: "المفتاح مش هيفتح".. طلب من ابن أخي الصغير - الـذي لم يـتجاوز السبع سنوات - أن يسأل جدته عن مكان المفتاح.. فرد الطفل متعجباً: "المفتاح مش هيفتح"!!

أصـيب الجـد بحالة من الذهول الممزوج باليأس... قائلاً: هل غيرتم المفتاح؟؟!!... أجبت مبتسماً: "المفتاح مش هيفتح".

أدخلـت يدي في جيبـي... أخرجت "الريموت كنترول"... ضغطت على الزر... ففتح الباب.

أخـــذت بيدي جدي إلى الداخل، ونفسي تحدثني: "إنني أحب جدي... لكنني لن أستخدم مفتاحه... "

أهيب بشبابنا ونحن في مطلع القرن الجديد أن يقدروا أجدادهم مـــن سياسيين ومفكرين وخبراء، ويستفيدوا من خبراتهم وتجاربهم، دون أن يتواكلوا عليهم، ظناً منهم أن بأيديهم مفاتيح الخلاص. فلو كانـــت معهـــم لفتحوا الأبواب الموصدة من عقود، لقد بحثوا، وإن كانـــوا لم يجدوا المفتاح في عصرهم؛ ففي الغالب لن يجدوه في عصر غيرهم. إننا في قرن جديد، تعقدت فيه التحديات، ويحتاج التصدي لهـــا أدوات جديدة وعقولاً وأساليب تفكير مختلفة... ومستحيل أن تـــتحكم في مصيرنا عقول قرن مضى، لأن العقليات السابقة ستنتج نفس الحلول، ولا يمكن أن يقود أحلامنا أناس أنهكتهم التجربة. ولا نعاتبهم.. فحسبهم أنهم جربوا..

ندائـــي للشباب أن يتبوءوا مقاعدهم، ويوقنوا أنهم الأقدر على صناعة تجربة جديدة، آن لهم أن يسمعوا العالم صوتهم، فتجثو البشرية تواضـــعاً لأفكـــارهم، وتُطرق الرأس إنصاتاً لبيانهم، مصغية إلى هذا الصوت العنيد، وذلك النبض الفريد. أهتف من أعماق الفؤاد... لا تنتظروا وصاية، ولا تستصغروا أنفسكم، بل اصرخوا ملء أفواهكم.. "سنصنع التاريخ"..

إنـــني أدعـــو الآن إلى اســـتراتيجية الاقتحام، أن نقتحم -نحن الشباب- مجالات الإعلام، والفكر، وصناعة الاستراتيجيات، وإطلاق المـــبادرات، وقيادة الأحزاب والمشاريع، ولا نتقيد بأسلوب تفكير أو طـــريقة عـــرض أو كتابة أو تأسيس أعلام القرن السابق، سنصوغ أطـــروحات فكـــرية مختلفة شكلاً ومضموناً، ونمطاً إعلامياً فريداً،

وممارسة قيادية رائدة، ولن يكون ذلك إلا بإيمان عميق بأننا قادة هذه اللحظة التاريخية، سنحدد مفرداتها، ونجدد مصطلحاتها، ونطور أساليب التعاطي مع الواقع، وسنعلن الثورة على كثير من مسلمات الماضي الخاطئة التي تقيدنا، لأننا ببساطة سنعبر عن جيلنا وأحلامنا، وما سيُعتبر اليوم خروجاً عن المألوف، سيصير طبيعياً بعد سنوات، بل ومستخلفاً بعد عقود، لن نرث الثارات التي أشعلها حراك أجدادنا، وقد نختلف معهم في نظرتهم للآخر، لكننا سنُشَيِّد على أفضل ما بنوا، لنؤسس لحياة جديدة.. تطل على عالم جديد.. ويقودها جيل جديد. يؤمن أنه بعد أن ينهي تجربته، ليس من حقه الوصاية على الجيل الذي يليه.

وأخيراً... ووفاء لأجدادنا.. من سياسيين وإعلاميين ومفكرين وغيرهم... نقول لهم: إننا نقدركم ولن نستغني عن خبراتكم، ونعترف أن لكم جهوداً مشرفة يعتز بها الجيل، لكننا نستنكف القعود عن تسلم زمام القيادة، ونبرأ بأنفسنا عن إعادة إنتاج مفاتيح القرن العشرين، التي عجزت عن فتح كثير من أبوابه، وبالتأكيد لن تفتح أبواب المستقبل.. حيث تُفتح الأبواب ببصمة الصوت.

أقول لكل من سيحاول استخدام المفاتيح في هذا القرن
"المفتاح مش هيفتح"

لا تعبر الشارع وحدك

تشيخ الأمم عندما تصاب بشيخوخة الفعل

"لا تعبر الشارع وحدك"... كلمات حانية... كم سمعتها من جدي الممسك بيدي لنعبر الشارع.. حتى وأنا ابن الرابعة عشر، لم ينتبه أنني كبرت، وعليَّ أن أعبر بمفردي.. وجدتني أتردد بعد ذلك في عبور الشارع.. أطيل النظر للسيارات القادمة، لأنني اعتدت أن يقودني جدي الأطول قامة مني، والأقدر على رؤية السيارت، ثم اتخاذ القرار الجريء بالعبور... لأعبر متترساً به.

كنت أغبط زملائي الذين يعبرون وحدهم بجرأة، رغم أنهم قد يصغرونني سناً، لم يمسك أجدادهم بأيديهم، كانوا يرمقونهم من بعيد..

كان منطق جدي خوفه علي، وهدفه أن أعبر الشارع بسلام، ظننت حينها أن أجداد زملائي لا يخافون عليهم، ثم أدركت لاحقاً أن هدفهم كان تعليم أحفادهم كيف يعبرون، وليس مجرد العبور، كيف يتخذون القرار، وليس مجرد تلقي القرار للتنفيذ.

ما لم ينتبه له جدي أنني صرت أسرع منه، وتقديره لإمكانية العبور بالتأكيد يختلف عن تقديري، لأنه يقيس الإمكانية بسرعته وصحته هو. كان الأطفال يعبرون الشارع في رشاقة متنقلين بين السيارات، بينما أتحرك بسرعة شيخ وأنتظر حتى يفرغ الطريق من السيارات. وفي الوقت الذي لم يكن هؤلاء الأطفال يخشون العبور؛

كانـــت تتسارع دقات قلبي كلما أحكم جدي قبضته على يدي مع تدفق سيل السيارات، وأجده يتقدم خطوة ويرجع للخلف خطوة.

أدركـــت أنه عندما تسود ثقافة القيادة الأبوية، ووصاية الكبير على الصغير، تعجز كثير من الأمم عن عبور شوارع التحديات لتصل إلى مـــيادين الحضارة، لأنها تُبتلى بأجيال متواكلة ممسوخة، لا تبادر ولا تطرح حلاً، منتظرة قرار الشيوخ.

و تـــشيخ الأمم عندما تصاب بشيخوخة الفعل، وتفقد حسها بعامل الزمن، فيقوم ابن الثلاثين بالأفعال التي يُفترض أن يقوم بها ابن الثامـــنة عشر، ويتقلد من جاوز الخمسين زمام المواقع التي يجب أن تنـــبض فاعلية بابن الثلاثين. هذا الترحيل يؤدي إلى شيخوخة الأمة، شـــيخوخة علـــى مـــستوى الأحلام والأهداف والاستراتيجيات، شيخوخة على مستوى الأداء، شيخوخة على مستوى صناعة الرموز في شـــتى المجالات. إنها حالة يمكن أن نطلق عليها "تصابي الشيوخ، وطفولة الشباب"، فالشيخ صار يقوم بعمل الشاب، والشاب يمسك بـــيد الشيخ خشية عبور الطريق، بحجة أن الشيخ أطول قامة وأقدر على رؤية السيارات القادمة من بعيد.

إن شـــيخوخة الفعل تعني أن يتأخر الشاب عن الفعل عقداً، أن يحمـــل الأب ابنه في الوقت الذي يتمكن فيه من المشي، وأن يمسك الجد بيد حفيده في الوقت الذي يستطيع أن يعبر الشارع بمفرده، وأن يعطـــي الجد قرار العبور في الوقت الذي يجب اكتفاؤه بتقديم الرأي. وإذا طـــال الأمد بالأمم تفقد الحس بالشيخوخة، فلا يطمح الشاب في ممارسة دور الشباب، بل يتمسك بقيام الشيخ بدوره، ويحرص أن يمسك بيده.

نحتاج اختزال هذه الفجوة الزمنية في مساحات الفعل. وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، ويتطلب هذا وعياً وجرأة، وعياً من الشيوخ بأن دورهم استشاري يزود الشباب برصيد ضخم من الخبرات، ويرمق عملية العبور، ووعياً من الشباب بقدرته على العبور، مدركاً أن أجداده ليسوا بالضرورة أقدر على الرؤية منه، فحدة البصر قد تضعف مع مرور العمر، ورصيد التجربة بقدر ما له دور إيجابي يستفاد منه؛ بقدر ما يحمل تأثيراً سلبياً إن كان الجد تعرض من قبل لحادث مرور، فأصيب بهاجس الخوف من العبور، مُوَرِّثاً إياه للشباب. ويتطلب الأمر جرأة في الفعل بعد هذا الوعي، جرأة من الشيوخ في دفع الشباب لاتخاذ القرارات والمبادرات مع تقديم النصح والخبرة، وجرأة التجربة من الشباب، حتى يتمرس اتخاذ القرار ويبصر الطريق بوضوح.

إن الأمة ستستعيد فتوتها إذا أدركت مؤسساتها خطورة هذه الهوة بداية من مؤسسة الحكم وانتهاءً بمؤسسة الأسرة، وقررت أن تستدرك، بإعطاء الصلاحيات للجيل الجديد الحالم، وتأسيس لجان استشارية من الشيوخ. وها نحن نرى بشارات تطلقها ثلة مغامرة من الشباب - في عدة أقطار - تعشق الجلوس في عين العاصفة لتثبت أن هذا زمانها. مُرَوِّضَة مجالات السياسة والإعلام والفن والإدارة وغيرها، مؤمنة بإمكانية الفعل، وعازمة على رسم مستقبل جديد، وتتجلى انتفاضتها في مشاريع شبابية، تحمل كلها رسالة واحدة مفادها... هذا زماننا.. وهذه هي لحظة العبور.. مؤمنين أن تأجيل تحركهم يكرس الشيخوخة، ويكرر المأساة بسلب الجيل الذي يليهم حقه، لقد أدركوا أن عصرهم يستنفرهم ليحلموا، ويكتبوا،

ويتحدثوا عن آمالهم، ويحللوا ويطرحوا رؤاهم في عمليات التحول.. إنهم أبناء المرحلة، وهم مهندسو المشروع الحضاري الذي يتمنونه... سحبوا أيديهم من قبضة أجدادهم بعد أن قبَّلوها قائلين.. "بإمكاننا العبور".

لعبة المحترفين

لعبة التحضير والأمل.."قواعد اللعبة تغيرت"

كثيراً ما شدتني مباريات كرة السلة للمحترفين، حيث ينـــزل إلى الملعب عمالقة البشر، ويرواغون بمهارة فائقة، ثم يقفزون في الهواء في استعراض مذهل، ليتعلقوا في الحلقة، فيصفق الجمهور. ومن أروع مـــا يميز هذه المبارايات، أن يصوب أحد لاعبي الفريق المهزوم الكرة مـــن بدايـــة الملعب في آخر ثلاث ثوان من المباراة، ليسجل هدف الفوز.

وليس بوسع أي فرد أن يلعب مع المحترفين. فإن لم يتميز بطول القامـــة، والرشاقة، والجرأة على الاقتحام، والقفز لأعلى المسافات، فهيهات أن يفوز.

وقـــد رأيـــت أحد هؤلاء العمالقة، ينتظره الناس أمام شاشات الـــتلفاز مترقبين طلعته، إنه الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله(*)، هـــذا الـــرجل الذي يعشق لعبة المحترفين، ويرفض اللعب مع الهـــواة، ويـــبذل الجهـــد في التدريب، وذراعه طويلة تصل إلى أبعد الأهداف.

إنه العملاق بائع الأمل... قد يختلف البعض معه، أو يتساءل

(*) تم أخذ السيد حسن نصر الله كنموذج للقيادة وهذا لا يعني أنه لا يخطيء، أو أنني أتفق بالضرورة مع كل أفكاره، ومنطلقاته، ومواقفه، وقراراته.

عن توقيت تحركه، أو يشكك في أطماعه، أو ينعته بالعمل لصالح أجـــندات أخرى تتقاطع مع الأجندة الفلسطينية، لكن أمراً وحيداً يصعب اللغو فيه، وهناك قول فصل وشهادة حق يجب أن تعلن.. أن صـــفات القيادة تتجسد فيه. أي أنني أتحدث عنه الآن كقائد يمتلك رؤية، ويلتقط الفرص التي تخدم قضيته. لم يبحث عن مهمة ســـهلة يـــستعرض فيها فريقه، بل قرر أن يسير على الحافة، ولم يـــذهب في نـــــزهة، بـــل أعلن المغامرة، فأثبت للناس أن الأمل موجود، وفي الوقت الذي يئست فيه الجماهير، ورأت أنها لا قبل لهـــا بخـــوض المباراة، وانتظرت معجزة من السماء، إذا به يصوب الكـــرة مـــن بداية الملعب لتسقط في قلب الهدف في نهاية الملعب، ويغير الموازين بشكل رائع. لقد أثبت إمكانية الفعل، وقرر أنه في الوقت الذي تلتهب فيه مأساة الطائفية في العراق، يمكن أن نسمع الـــسيمفونية المشتركة للسنة والشيعة على أرض فلسطين ولبنان، فالأمة فيها الخير، ولا يمكن تعميم ما يجري في ساحة من ساحاتها علـــى كل بقاعها. لقد عزف ألحان الأمل ببراعة، وكتب كلمات أغنـــية مفعمـــة بالإيمان، ينتظر الناس بيانه، لأنه لا يتحدث مثل الآخـــرين، بل قوله فعل، ووعده نصر، لا يعرف التردد له طريقاً، ولا يتحرك خطوة إلا بعد أن يحدد التي تليها.

إن لاعبي كرة السلة يلعبون وفق قواعد محددة سلفاً، لكنه أراد أن يـــتفوق عليهم، ويبادر بتغيير قواعد اللعبة، أعلنها قبل أن ينـــزل الملعـــب.. "قـــواعد اللعبة تغيرت".. وتغيير قواعد اللعبة ليس شعاراً خطابـــياً، وإنمـــا يسبقه تحضير وإعداد وصياغة استراتيجيات وتوقع ردود أفعال.

إن الـــذين يـــتحكمون في قواعد اللعبة هم المنتصرون، والذين يـــصنعون الفعـــل ولا يقعون أسر رد الفعل هم الأبطال المغامرون، وأولـــئك القـــادرون علـــى اتخاذ القرار هم العمالقة الذين يعشقهم الجمهور، أما المترددون.. فمع كل تردد يتقازمون.

بلطجية الفكر

احترس... تسلل إلينا عقل

كنت أتابع تفاعل الأحداث السياسية في نشرة الأخبار، رأيت بعض "البلطجية" يتصدون لفض اعتصام، حيث يفضل بعض لاعبي السياسة استخدام القوة لقمع منافسيهم. وفي نفس التوقيت كنت أتصفح إحدى منتديات الإنترنت، وجدت مجموعة تسب مخالفيها، وأخرى تدعي احتكارها الصواب... التفت إلى التلفاز، فخُيِّل إليّ أن الصورة مكررة، وألوانها متقاربة، فعلى التلفاز "بلطجية السياسة" يريقون الدماء الحمراء، وعلى الإنترنت "بلطجية الفكر" يكتبون باللون الأحمر..

وفي تقديري أن "ثقافة البلطجة" إفراز طبيعي لنمط تفكير يطغى في مجتمع من المجتمعات، حين لا توجد سوى وسيلة واحدة للحوار... أن تسمعني.. وهذا النمط يكرسه الأب في بيته، والمدرس في فصله، والمدير في مؤسسته... الخ، لذلك نجد بلطجية الفكر في كل مكان، في المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية.. الخ، ويستخدمون أبشع الأسلحة المحرمة إنسانياً، ليغتالوا العقول، تارة برصاصة تتناول شخص طارح الفكرة ومكانته ومدى جدارته بالحديث، وأحياناً تخترق الرصاصة قلبه مفتشة عن نواياه، وحينها تطغى مناقشة هوية الأشخاص على تمحيص الأفكار، وتارة يحمل بلطجي الفكر في نفسه بقايا إنسان، فيكتفي بدبوس يشك به طارح

الفكرة قبل أن يستكمل طرحها قائلاً له: "ستبحث المستويات العليا هذه الفكرة... والآن.. لننتقل إلى النقطة التالية"، أو آخر يتميز بالرقة فيهمس في أذن من بجواره: "إنه يفكر كثيراً... سيتعبنا".. وأحياناً تستعد المؤسسات بكتيبة الردع الفكري للوقاية ممن أطلقت عليهم "مشاغبو الفكر"، فتسأل قبل أن تضم فرداً جديداً إلى فريقها: "هل يفكر كثيراً؟؟".. أما كبار البلطجية فلا يكترثون بالأسلحة السابقة؛ بل يطلقون قذائف فتاكة من عيونهم، تتجسد في نظرات ازدراء أو توعد أو استنكار، لتقتل فكرة مطروحة قبل تمحيصها، بعد أن تكون شظايا القذائف أصابت طارحها بالشلل العقلي.

وهناك العرافون، الذين يعلمون شيئاً من الغيب، ويقرأون الفنجان، ترى أحدهم يقول لمحدثه قبل أن يشرح فكرته ويوضحها: "لا تكمل.. أفهمك... أعرف ما الذي ستقوله"..

ووأد الأفكار لا يقتصر على شريحة القيادة، فقد لاحظت وجود أفراد في بعض المؤسسات - ليسوا في مركز القيادة - ويروجون لنفس الأسلوب، خلتهم في بداية الأمر "بلطجية تحت التمرين"، لكنني وجدتهم يمارسون الإجهاض الفكري بجدية، ويتطوعون بالرد نيابة عن مديريهم بنفس الأسلوب، حينها علمت أنها ثقافة تُوَرَّث، وعبارات واحدة تردد لإجهاض جنين الفكرة.. مثل: "هل جربها أحد من قبل؟؟"، "دعنا نعمل بالطريقة التي نعرفها"، "لو كانت صالحة لنفذها الإدارة من فترة"، "لدينا إدارة واعية.. ركز فقط في إنهاء عملك"، "هل تعتقد أنك أعلم من الإدارة بهذه النقطة؟؟!!".

وانتهاكات بلطجية الفكر لحرمة العقل لا تقل خطورة عن جرائم بلطجية السياسة، بل تفوقها أحياناً، فالرأي العام يستنكر فعل

بلطجية السياسة، أما بلطجية الفكر فيجدون لكلامهم رواجاً خاصة عندما تكون ثقافتهم هي السائدة، وبلطجية السياسة يُستخدمون من قبل بعض النخب السياسية، وربما يتبرأ النخب منهم بعد ذلك، أما بلطجية الفكر فقد يكونون في قمة الهرم في مؤسساتهم، ويمثلون نماذج يُحتذى بها، وهم أنفسهم الذين يمارسون قمع الأفكار دون وسيط، وعادة ما تكون كلمتهم مسموعة، وخطب ودهم مطلوب، لذلك يسكت عنهم الرأي العام داخل مؤسساتهم، أي أن البلطجة هنا بلطجة نخب.

والمؤسسات بصفة عامة لا تحارب كل الأفكار، فأي فكرة جديدة ترسخ الوضع القائم ستحظى بالتكريم، أما الأفكار التي يحكم عليها بالإعدام، فهي التي تتناول مسار المؤسسة من أساسه، وجدوى وجودها، واستراتيجيات تحركها، ومدى إنجازها، ومعايير وآليات تولي القيادة.

إن أي مجتمع يصير فيه التفكير جريمة فهو على خطر، وأي وسط تُطارَد فيه الفكرة سيفتقد حتماً مقومات الحياة، فالأفكار أكسجين التنفس الذي ينعش رئة أي مجتمع ليكون قادراً على التطور، وتموت الأمم حضارياً إذا أصيبت بأزمة التعامل مع العقول، واعتبرتها عدواً.

وقد انتبهت بعض المؤسسات في عالمنا العربي إلى خطورة القطيعة مع العقل، وقررت أن تبدأ المصالحة معه، واستبدلت رعاة الفكر ببلطجية الفكر، مدركة أنها لن تتطور إلا إذا سادت فيها ثقافة احترام الإنسان، وتقدير عقله، وعلمت أنه رأس مالها فترعاه وتستثمر فيه وتشجعه على أن يدعمها، لا أن تعتقل ملكاته، ورأت فيه مصدر تميزها، لا تهديد وجودها واستقرارها.

اختــارت كثير من المؤسسات لصفارات الإنذار صوتاً مدوياً.. "احتــرس... تسلل إلينا عقل"... وفي ناحية أخرى نرى مؤسسات واعــدة تــسعى لتقديم النموذج، مؤمنة أن أمتنا ستبرع وتنافس في الــسباق الحــضاري يــوم أن ترن صفارات الإنذار في مؤسساتها.. "احترس... سيتفلت عقل".

الفيلم مش حقيقي

فن البحث عن الحقيقة

كنا نتجاذب أطراف الحديث منتظرين الفيلم.. أنهكنا الحوار... لم تُوقف حركة شفاهنا سوى موسيقى المقدمة، لتفتح بوابة تنقلنا إلى عالم السينما.. صمتت الألسنة.. البطل يجري... يرتطم بالأرض إثر حادث سيارة... يتناثر الدم من وجهه... تأملت وجوه أصدقائي... الألم يغزو العيون.. قاطعت صوت الصمت قائلاً: "لا داعي للحزن.. هـــذه محاليل حمراء وليست دماء... الفيلم مش حقيقي"... انفجروا غضباً من مقولتي وتوعدوني... ثم بدأ التركيز من جديد.

في مشهد الفرح، تستعد العروس ليوم طالما حلمت به، وجدت فرحة في عيني طفلة زميلي الصغيرة التي تجلس بجواري، فهمست في أذنها: "لا تفرحي هكذا... الفرح مش حقيقي"... فكادت تفترسني وناشدتني الصمت... فوعدتها أن ألتزم..

وفي مـــشهد العراك... سيسقط أحدهم من أعلى... احتبست الأنفـــاس... الكل يخشى لحظة السقوط... أحضرت ورقة وجعلتها قـــصاصات بعـــدد الـــزملاء، كتبت عليها جملة قصيرة، سألت من بجـــواري أن يوزعها دون إحداث ضجة.. سقط البطل من أعلى.. طلبت منهم قراءة الورقة.. فتحوها فوجدوا.. "هذا دوبلير.. الممثل لم يقفـــز... الفـــيلم مـــش حقيقي"... فقدوا السيطرة على أعصابهم وأقسموا ألا أصحبهم في أي فيلم.

أليس من العجيب أنك تشاهد الفيلم وتعلم مسبقاً أن ما يجري فيه ليس حقيقياً - بداية من أسماء الممثلين وانتهاءً بالأحداث - ثم تتفاعل معه فرحاً وبكاءً وترقباً وحذراً؟؟!! أليس من المثير أن يقطع انتباهك اتصال هاتفي ثم تعود بعده متسللاً إلى الشاشة الصغيرة مندمجاً مع الممثلين، مغادراً الزمان والمكان؟؟!! أليس من المذهل أنك تشاهد فيلماً قديماً مات كل ممثليه - ولعلك شاهدته من قبل عدة مرات، ثم تندمج معهم وتتألم لأحدهم إذا ضُرب؟؟!! بإمكانك تفسير كل ذلك ببساطة... أنك تريد أن تصدق، فرهنت عقلك طواعية لشخص آخر يتحكم فيه.

كم أرقتني ظاهرة إعارة العقل للغير، فحالة الاستسلام العقلي تتم طواعية، كنت حريصاً أن أُذَكِّرهم أن هذا تمثيل، لا داعي للبكاء، أو للفرح، فكل ما ترونه ليس حقيقياً، وهذا المشهد تم تصويره ما لا يقل عن خمس مرات، والحجرة التي تبدو وكأنها خاوية من البشر تكتظ بأفراد حُرموا من الدخول في كادر اللقطة من مخرجين ومصورين... الخ، المفارقة هنا أن المُشاهد يعرف كل ذلك، لكنه يريد التصديق، بل ويتأذى من أي محاولة تعيده إلى الواقع، ولم يكن مفعول تنبيهاتي أثناء الفيلم ليدوم أكثر من ثوان؛ حتى كانت العقول تستجيب لشهوة الاستسلام.

إنها حالة من تدافع الأفكار داخل العقل، تدافع بين الحقيقة، وبين الفكرة التي يريد أن يختزنها، لتهيمن بعد ذلك على المشاعر وقد تترجم إلى سلوك، إننا كثيراً ما نرى ونفسر الأشياء على غير حقيقتها، لأننا نرغب في رؤيتها بشكل يروقنا، ننتقي من الواقع بعض اللقطات التي تخدم فكرة في أذهاننا، لنُكَوِّن صورة رقمية وهمية تبكينا

وتفـــرحنا وتستنفرنا وتقعدنا، تماماً مثلما أطلقنا على الممثل "بطلاً"، وعلى التمثيل "حدثاً حقيقياً"، وعلى الديكور "أثاثاً"، وعلى المحاليل الحمراء "دماءً". فإن أرادت مجموعة أن ترى العالم قائماً على الطائفية فستراه كذلك، مهما ذكّرها الآخرون بأن الواقع أكثر تعقيداً من هذا التبـــسيط، وأن حقائق الأحداث تختلف عن الفيلم المعروض، وتحتاج إلى تحليل يتجاوز القشور إلى الجوهر، وتتطلب الانتقال من المشاهدة عـــبر شاشة التلفاز إلى زيارة الأستوديو، ومن المؤكد أن مساعي من يحاولون كشف الخمار العقلي لن تُقَابل بترحاب، نظراً لقابلية العقل للاحـــتجاب، والرغبة في تكوين صورة رقمية عن الواقع تختلف عن الصورة الحقيقية. نجد نفس النموذج في بعض المؤسسات على تنوع مجالاتها، عندما تُقنع القيادة نفسها بأنها بذلت ما في وسعها وحققت إنجـــازات، في حـــين أنها تبذل جهداً في القفز في المكان، وكثيراً ما تتأذى الأغلبية المغيبة في هذه المؤسسات من محاولات التنبيه التي تقوم بهـــا الأقلـــية اليقظة، ولا تتورع عن تصنيفهم كمجرمين... تهمتهم إفساد متعة مشاهدة الوهم.

آن لـــنا أن نـــتحكم في عقولنا، ونأبى تسليمها لأسر فكرة أو شـــخص، وأن نخوض معركة تحرير العقول لنعلن استقلالها، ونرفع عليها أعلام التجديد. ويتطلب هذا أمرين أساسيين:

أولاً: معرفة بهذا الداء... داء إعارة العقل للغير، وقابلية الإصابة به.

ثانـــياً: تحـــديث المدخلات المعرفية بشكل متجدد، ليتم تناول القـــضية الـــواحدة من كل الزوايا المطروحة، ويعاد رسم صورة عن الواقع والذات والآخر بشكل دوري.

إن العقل الحر لا يستنكف أن يغير فكرته إن شعر بسيطرة فكرة وهمية عليه، ويرفض بدوره تلقين الآخرين فكرته، أو توريثها لجيل لاحق دون دعوتهم لتمحيصها ووضعها في معمل النقد ليتم تحليلها بشكل دقيق، فهو لا يدعو مَن بَعده للاستمرار على فكرته، بل يدفعهم ليراجعوها من جذورها لعله عجز عن إبصار أجزاء من الحقيقة، إنه يعزف أعذب ألحان القرن الجديد، لتطرب جنبات الدنيا بهذا الصوت الهادر.. "علموا الجيل طريق الاستقلال، ولا تقيدوا عقولهم بأغلال أفكاركم، ولا تبيعوهم أفلام أوهامكم ليشاهدوها على اعتبارها حقائق. دربوهم على عشق الفن... فن البحث عن الحقيقة."

طلعت الأول زمان

نجاح الأمس هو فشل اليوم

كانـــت العائلـــة تلتقي مرة كل عام بحلول الأجازة الصيفية، وكالعادة يبدأ كبير العائلة بالاطمئنان على نتائج امتحانات الأطفال الثلاثة، كان اثنان منهم يحصلان دائماً على أعلى الدرجات، ما أثار انتباهـــي هـــو ثالثهم الذي كان يتعثر دائماً، رغم تمكنه من تحصيل الدرجة النهائية في مادة الرياضيات مرة واحدة فقط، وهو في الصف الأول الابتدائي.

هذا يقول: ترتيبـــي الأول هذا العام... وذاك يقول: ترتيبـــي الخـــامس هـــذا العـــام.. أما ثالثهم يقول: "طلعت الأول" في مادة الرياضيات العام الماضي.

يمـــر عـــام... يلتقي الأقارب في إجازة الصيف... يطمئن الجد علـــى نـــتائج الامتحانات... هذا يقول حزيناً: ترتيبـــي الثاني هذا العـــام، والآخر يقول: ترتيبـــي الرابع... أما الثالث فيقول: "طلعت الأول" في مادة الرياضيات في العام قبل الماضي.

مرت ثلاث سنوات، والتقت المجموعة... الأول: ترتيبـــي الأول هذا العام... الثاني: ترتيبـــي الأول هذا العام.. أما الثالث فقال: "طلعت الأول" في مادة الرياضيات وأنا في الصف الأول الابتدائي.

إن نجاح الأمس هو فشل اليوم، فإن كنت الأول على منافسيك مـــنذ خمـــس سنوات، وظللت تفتخر بهذا النجاح؛ فهذا يدل أنك

فشلت في الأربع سنوات الماضية، لأنك عجزت عن صناعة نجاح جديد، وآثرت الانتساب إلى الماضي.

ومن أسباب موت المجتمعات حضارياً أن تكثر قيادات مؤسساتها من استخدام صيغة الماضي في مفرداتها، وتصير كلمة "كنا" هي الفاصلة وعلامة الاستفهام والتعجب في خطاباتها وتقاريرها، وتكون أغنية "زمان" هي الأغنية المفضلة التي يتغنى بها طاقم العمل، إنها لا تقتات إلا على الماضي، وتعزف عن الاشتغال بصناعة المستقبل، وتكتفي بالإحالة إلى التاريخ كلما سئلت عن الحاضر والغد، والذي يملك حاضراً لا يكثر الحديث عن بطولات الماضي، لأن الحاضر يأبى أن يتغول عليه الماضي، والأحياء لا يتبنون الأموات.

لذلك تستطيع توقع إنجاز أي مؤسسة من خلال نظرة مبدئية لنوعية القصص التي تُحكى ويستشهد بها داخلها، هل تعلن إفلاسها عن مواكبة الواقع فتعيش مع الذكريات واستدعاء الإنجازات التاريخية؟ أم يغلب على قصصها إنجازات الحاضر؟ أم تتجاوز ذلك لتستشرف المستقبل؟ أنت تعيش حيث تتحدث.. فإن كنت تتحدث عن الماضي فحسب؛ فهذا يعني الهروب من مواجهة الواقع إلى الخلف، ووأد الحاضر بحقنه بمسكنات التاريخ، أما إن كنت تتحدث عن حاضرك فأنت مشغول بالحاضر، وإن كنت تتحدث عن أفكار من المستقبل، فأنت مُتَيَّم بزيارة المستقبل.

البلياردو

من الواضح أن إخفاقاتنا ليست نتاج دهاء أعدائنا

كـــنت على موعد مع صديق لي في النادي.. وصلت مبكراً... تجـــولت حـــتى يحين الموعد... دخلت قاعة البلياردو... بدأت أتأمل اللاعبين... جذبني طفل... أسرتني مهارته، وأعجبتني وقفته كفارس محتـــرف مـــن فرســـان البلـــياردو، سألته عن كيفية وصوله إلى هذا المـــستوى، فعـــرفت أنه يتدرب يومياً ساعتين، وأنه من عشاق هذه اللعبة.. دعوته بعد أن حسم المبارة لصالحه أن يتجول معي... فاقترح الذهاب إلى ملعب كرة القدم.

انتقلنا إلى الملعب، وازداد شوقي لرؤية هذا البطل الصغير في ســـاحة الكـــرة، بـــدأت المـــبارة، كانت عيني لا تفارقه، لكنه صـــدمني!!... فقدرته على التحمل ضعيفة جداً، وتصويبه للكرة قلمـــا أصـــاب حـــدود المرمى، كان أمراً مذهلاً، وحزنت لأنني انتظرت استمتاعاً بأدائه كما أمتعني في البلياردو... انتهت المباراة، وأتـــاني وأنفاســـه تزلزل جسده، قلت له: لم يعجبني أداؤك، رد متعجـــباً: أنـــا لا أتدرب على كرة القدم، ولست لاعباً متمرساً فيها... أنا لاعب بلياردو...

أحسست أنني بالغت في قدرات الطفل، أو أردت أن أرى منه فعـــلاً لم يـــرده هو من نفسه، فقد أراد فقط أن يمضي وقتاً ممتعاً مع الكرة، وأردته بطلاً في كرة القدم.

كـثيراً ما تتدرب أمتنا على لعبة البليارد التي لا تستدعي بذل جهـد بـدني كـبير، أو لياقة عالية، وتغفل عن أن المباراة المدعوة لخوضـها في كـرة القدم. وشتان بين حجم كرة القدم التي تضربها بعنف وتتطلب قدماً قوية، وبين حجم كرة البليارد التي تغازلها بعصا خفيفة بعد أن ترتشف بعض الشاي، وبون شاسع بين ملعب البليارد الـذي تطوف حوله بدلال، وملعب كرة القدم المهيب الذي يسلب الأنفاس، ويقهر العدائين من الرجال، وهناك تمايز كبير بين خصمك في لعبة البليارد، الذي يتفرج عليك وأنت تلعب، ويمنحك فرصتك، وبـين خصمك في كرة القدم الذي لن يتورع عن تسويتك بالأرض قـبل أن تدخل منطقة الجزاء. إن كثرة التدريب على البليارد لا تغني عـن لاعـب كـرة القدم شيئاً، والساعات الطوال التي يقضيها في التمـرس علـى هذه اللعبة لن تشفع له حينما ينتظر الجمهور عَدْوَه برشـاقة ثم يـسدد ويحـرز الهدف. إننا مع كل مباراة نمارس نفس السلوك، فنخرج من قاعة البليارد إلى الإستاد، ثم نشكو قوة المنافس، ونـندد بظلم الحَكَم، وقد نلعن الجمهور المتآمر، ثم نقسم أننا تدربنا الساعات الطوال، وفعلنا ما بوسعنا.

مـن الواضح أن إخفاقاتنا ليست نتاج دهاء أعدائنا، أو تفوق عـددهم وعتادهم، وإنما هي نتيجة طبيعية غير مفاجئة لممارسة البَلَه السياسي على مدار عقود، وهدر الأوقات في افتعال الحراك. وها نحن نبصر أداءً راقياً يذهل العدو قبل الصديق، عندما نجد منظمات جادة، ومؤسسات قررت أن تستعد للمباراة.

إن لاعب الكرة الذي يتدرب على البليارد أشبه بالمقاتل الذي يـتدرب على العمل البرلماني، وبالمناضل السياسي الذي يتدرب على

العمل الخيري، وبصاحب المشروع الخيري الذي يتدرب على تدريس الطلاب.

يحتاج الأفراد والمؤسسات في كل القطاعات وعياً بالأدوار التي سينتدبون أنفسهم لها، فيدركون طبيعتها جيداً، ثم يتدربون ويمتلكون أدواتهـــا، وإلا ظلـــت الأمة تبذل جهوداً في البلياردو، بينما الجمهور ينتظـــرها في استاد كرة القدم، وإذا قرر الأبطال أن يخوضوا المباراة، فلـــيكفوا عـــن الجري حول الملعب "التراك"، وليكسروا خوفهم من اقتحام المساحة الخضراء، حيث يدور التنافس.

يجـــب أن نحدد أولاً أي المعارك نخوض، ثم نستعد لها بما تتطلبه من إعداد. وليس من البذل أن يسيل العرق في التدريب، ولا توجد نـــية خوض المباراة، وليس من الفطنة أن تستنـــزف عمرك لتؤسس مدرسة للسباحة في قلب الصحراء.

الصورة مقطوعة

أيها النقاد.. أعيروني أعينكم

كـــنا بصدد تأسيس مشروع، حددنا فكرته، وأجبنا على بعض الأســـئلة الأولية.. دعوت الفريق لزيارة شخص نطرح عليه الفكرة، سألوني إن كنت أتوقع مساعدته، أجبتهم بالإيجاب -رغم علمي أنه ســـيعارض الفكـــرة بقوة.. ذهبنا إليه.. طرح عليهم أسئلة صعبة.. خـــرجوا مـــستائين، فقـــد دمـــر لهـــم الفكـــرة.. قلت لهم: "ألا تنتبهون؟؟!!.. الصورة مقطوعة".

يـــتحدث الكـــثيرون عن النقد البناء والهدام، ويرون أن الأول محمـــود والآخر مذموم، ولا أرجح هذا التصنيف، فالنقد قد يصنف إلى نقـــد موضـــوعي وغير موضوعي، وليس ذلك فحسب، بل بين الموضوعية واللاموضوعية عشرات الدرجات، فربما تختلط الموضوعية مـــع اللاموضـــوعية، وقـــد تتـــسم نقاط بموضوعية تامة، وأخرى بلاموضوعية. لذلك فحتى هذه الدرجات نسبية يصعب حسم القول فيها.

ويـــصعب تـــصنيف النقد إلى هدام وبناء، لأنه - في رأيي- لا يهدم ولا يبني مشاريعاً، أو يقتل أو يطور فكرة، فعملية الهدم والبناء مـــرتبطة بالشخص أو المجموعة حاملة الفكرة الموضوعة على منصة النقد، فقد يمتليء النقد بآراء قيمة تبني، لكن المجموعة المتلقية له تكون متعـــصبة متحجـــرة الفكر، فحينها تهدم مشروعها بتجاهل النقد،

مستمرة في إعادة إنتاج أفكارها القديمة، وقد يكون النقد لاذعاً فينعته البعض بال"هدام"، لكنه يصادف عقولاً تتمتع بالحيوية، فتلتقط من ثنايا صواعق النقد ما تعيد به بناء وتشكيل أفكارها.

لذلك أرى أن قضية الهدم والبناء مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحامل الفكرة، وليس بالناقد أو النقد ذاته، وكم من ذكي استفاد من نقد عدوه، بل وسعى إلى الاستماع إليه رغم يقينه أنه لن يوجه بالضرورة نقداً هادئاً عذباً، وأن خصمه لا يسعى إلى بنائه وتطويره، لكنه يدرك أنه سيضيف له زاوية نظر دقيقة جداً، غالباً ما يتعامي العقل عن إبصارها. إذن قد يتعمد خصمك نقدك لهدم فكرتك، لكنه يمنحك مواد البناء دون أن يدري.

إن النقد يمثل زوايا النظر المختلفة للمشهد الواحد، ويضيف عقولاً جديدة إلى عقلك كي تفكر، وعيوناً تزيد عينيك قوة في الإبصار كي ترى. والعاقل لا يلتفت إلى شخصية الناقد وأسلوبه، وخلفيته التاريخية، ومدى قربه أو بعده عن فكرته، أو نعته بالبناء أو الهدام، مدركاً أن عملية الهدم والبناء في يده هو، كما أنه لا يضع شروطاً للناقد، كأن يتأدب ويتلطف، أو يزين كلماته - وإن كان ذلك أدعى لقبول الرأي، أو يكون من داخل فريق العمل حتى يحق له إبداء الرأي، إلى آخر ذلك من معوقات قبول النقد.

كم أعجبني مطاردو الأفكار أينما كانت، فيذهب فريق عمل بمشروعه ليعرضه على من يُعتقد أنه سينتقد فكرته بقوة، فيستفيد من أسئلة الناقد الحرجة، ولعل أعضاء الفريق لا يملكون أجوبة كافية، لكنهم يختبرون صلابة الفكرة من خلال تلك الأسئلة، فيضعون أيديهم على مواطن قصورها، ومن ثم يبدأون في تشذيبها وتوفير

الأجـــوبة علـــى الأسئلة المطروحة عليها، إنهم لا يطلبون من الناقد "المـــشاكس" أن يشاركهم في التنفيذ، بل استفادوا منه في أعمق من ذلك، في بناء الفكرة وتطويرها، وقد يستعذبون وضع أفكارهم تحت المطارق لتزداد حدة، فيخصصون لمشروعهم كتيبة من النقاد، تُعرض علـــيها الأفكار، لسان حالهم "أيها النقاد.. أعيرونا أعينكم". وليس ذلك فحسب؛ بل ويفردون ملفاً لتسجيل أخطائهم، ولا يخجلون من توثـــيقها، لـــتكون في أرشيف ملفات المشروع، ويستفيد منها من يليهم.

وعلـــى النقـــيض هناك من يتهيبون النقد، وينون بينهم وبينه أســـواراً عالـــية، ولايدونون أخطاءهم، ويدافعون عن كل تاريخهم، مـــتخذين من النقد عدواً، وينظرون إلى طارحه بقلق، مفتشين عن بطاقـــة هويـــته، ظـــانين أنهم بذلك يحمون فكرهم، وما دروا أنهم يخنقونها، ويسدون عليها منافذ الهواء، ثم يتحلقون حولها صارخين.. تنفسي.

علـــى كل صاحب فكرة أن يدرك أنه يمسك صورة مقطوعة، ودوره أن يـــتقن هواية تركيب الصور، فيدرك أنه يمتلك قصاصة من الصورة، وأن بقية القصاصات مع آخرين، وأنه يحتاج استجماع كل القـــصاصات كـــي يبصر الصورة، بعض هذه القصاصات مع أفراد فـــريقه، وبعـــضها مع المتحاملين، وبعضها مع الأعداء، وقد يستعيد قصاصة بكلمة طيبة، وأخرى بكلمة لاذعة من حامل القصاصة، عليه أن يـــدرك أن لكل قصاصة سعراً، وأن واجبه استعادتها جميعاً، وأن يـــوقن أن فـــتح بوابات العقل لمرور مواكب النقد - بدون قيد - يضمن استجماع كل قصاصات الصورة.

الطـــريف أن البعض يبذل الجهد في جمع القصاصات، فيستمع لكل الآراء، لا ليركب الصورة، بل ليحرق تلك القصاصات، ويبقي قصاصته التي بين يديه، ثم يقنع من معه أنه استمع لكل الآراء وتأكد من صحة ما يقوم به.

صراع الأحلام

أنت تعيش حلم غيرك

حلقت بنا الطائرة عالياً، وتنحت السحب جانباً كي نتجاوزها إلى ارتفاعـــات شاهقة.. كان يجاورني شخص يركب الطائرة لأول مـــرة.. تشكلت على قسمات وجهه علامات السعادة والتعجب.. قـــال لي: "كـــان حلمـــي ركـــوب الطائرة".. قلت: "هذا ليس صحيحاً... أنت تعيش حلم غيرك".

لقد تخيل عباس بن فرناس البشر يطيرون، وزار المستقبل ثم عاد ليخبر قومه أنه رأى الناس تطير، كان يبدو الأمر حينها جنوناً، لكننا اليوم نعيش حلم ذلك الحالم، إننا ونحن نركب الطائرة، لا نفعل أكثر من أننا نعيش حلم شخص آخر.

وسنكتـــشف - إذا تأملنا - أن معظم حياتنا لا تتجاوز تحقيق أحلام آخرين، فعندما تعتلي بسيارتك جسراً، أو تركب قطاراً يسير تحـــت الأرض، ســـتجد أنك تعيش أحلام من رأوا الناس يسيرون معلقين في الهواء، أو يختصرون الطرق تحت الأنفاق، لقد بذل أولئك الحالمـــون جهـــدهم حتى يقتحم الخيال بوابة الواقع، فطوعوا الواقع ليذعن للحلم.

وعـــندما تتقدم للعمل في شركة كبرى، فإنك في الواقع تحقق حلـــم صـــاحب هـــذه الشركة، الذي تخيل شركته ممتلئة بالموظفين النشطين، وأرادها قبلة المتميزين، فتعود لتفتخر أنك تعمل في شركة

عظمى، وما دريت أنك تفتخر بحلم غيرك. ونلحظ نفس الفكرة في عالم السياسة، فالشعوب المقهورة تعيش أحلام الديكتاتوريات، التي تخـيلت يوماً ما سجود الشعوب لها، فحققت الشعوب المذعنة ذلك الحلـم، ونالت الديكتاتوريات ما أملته في السيطرة، وسنجد بعض الـدول الضعيفة تعيش حلم قوى الاستكبار، وتنفذ دور التابع، وهو الـدور الـذي حددته لها قوى الاستكبار في حلمها، حين اختارت الهيمنة حلماً.

وإذا افتقدت أمة ما القدرة على الحلم فستظل تعيش أحلام أمم أخرى، وهؤلاء الذين ينادون بالواقعية "وفن الممكن" على اعتباره فن الاستـسلام للظـروف؛ لم يدروا أن أحلامهم ليست خارج نطاق الممكن، فنحن الذين نحدد "الممكن" بتجربتنا، وهل كان من الممكن في عقولـنا أن يسير شخص في الشارع يعلق قطعة معدنية في أذنه، ويكلم الآخرين، ويجري اتصالاته من أي مكان؟؟!!

والجـنون هو الصفة الأساسية التي ينعت بها الحالمون، فالرسل وصفوا بها، وقتل علماء قالوا بكروية الأرض في وقت كان يعتقد أنها مـسطحة، إن الحـالمين هم زوار المستقبل، الذين يكسرون التصور الحـاكم "الـبارادايم" في عـصر مـا، ليردموا الفجوة بين الممكن والمستحيل. مستعلين على قيود الواقع، مدركين أن حلول مشكلاته تأتي من زيارة المستقبل، وأن الضغوط لا ينبغي بحال من الأحوال أن تقـيد العقـل، أو تعـتقل فيه ملكة التخيل، كانوا يتخيلون شكل المستقبل الجديد، ثم يعودون به إلى الواقع.

يمكـن أن نجمل جوهر الصراع في الحياة بأنه صراع الأحلام، فـصاحب الشركة الكبيرة يتأذى منك إن وجدك ستخرج من أسر

حلمه لتؤسس شركتك وتبني حلمك المستقل، ورئيس الحزب سعيد برؤية أتباعه يدورون في فلك حلمه، ويخشى من خروج عضو بفكرة حزب جديد، يحمل حلماً جديداً، والديكتاتوريات وقوى الاستكبار تحتكر حق الحلم، وترد بقسوة من يحلم بعالم العدل والحرية، بل وتوهم العقول باستحالة الحلم.

إننا في دنيا الأحلام نجد البعض يحلم، ويوزع الأدوار على الآخرين في حلمه، والبعض الآخر يحاول الخروج من أسر دور فرض عليه في حلم غيره، وآخرين قتلت عندهم ملكة الحلم، واستسلموا للقيام بدور في حلم غيرهم، والبعض اختار أحلام الآخرين بوابة يطلق من خلالها حلمه.. ترى هل نحسن صناعة الأحلام أم سنظل نعيش أحلام الآخرين؟؟!! متى نحلم لأنفسنا؟؟!! متى ننهي احتكار الحلم؟؟!!

نظارة القائد

نظارتك ستحدد مستقبلك

بـــدأت أبحـــث عنهم... جذبتني أشكالهم... كنت أرقبهم... شـــباباً وشـــيوخاً، نساء وفتيات، ولم ينج حتى الأطفال من قصف نظـــراتي.. تساءلت!! ترى ماذا يرون من خلفها؟؟!!... وهل كلهم يبصرون نفس الشيء بنفس الكيفية؟!! بل لماذا أصلاً يلبسونها؟!!

الـــبعض يلبس نظارات شمسية فيرى عالماً بني اللون يتجنب به ســـطوع شمـــس العالم الحقيقي، والبعض يستعمل نظارات تضبط له النظـــر مخافة أن يسقط أسير الحفر في الطرقات، وآخرون يكادون لا يبـــصرون بدونها فيرون واقعاً ضبابياً، كل هؤلاء اجتمعوا على شيء واحـــد، أنهم قرروا أن أعينهم المجردة بحاجة إلى أداة جديدة تعينهم على الرؤية.

فكرت أن أشتري نظارة فأعياني البحث ولم أجد ما أريد، مل البائع ونفد صبره، كنت أبحث عن نظارة أبصر من خلالها المستقبل، نظـــارة أرى من عدساتها الأمل حين يستغرق الناس في الألم، أبصر منها زمجرات التحدي والممانعة، حينما لا يبصر الناس إلا خربشات الآهات على عدساتهم، إنني أبحث عن نظارة استخدمها قادة التاريخ العظـــام، ومجددو العصور، فكانوا من خلالها يبيعون شعوبهم الأمل، كانوا يرون في كل مشهد فرصة لإثبات التحدي، فلم يروا في الفقر بؤســـاً؛ بـــل أبصروا فيه وقود الثورة، ولم يبحثوا عن مآسي الفقراء

ليـــزيدوا إحباط الناس؛ بل نقبوا عن طليعة تمكنت من ترويض الفقر واستخدامه لتغيير الواقع وصرخوا في العالمين "بمثل هؤلاء فلتقتدوا". كانوا يبشرون قومهم، صناعتهم رؤية المستقبل وليس الترويج للواقع، فالواقـــع الـــسيئ يعلمـــه الكل، ولا يحتاج إلى ندب أو نواح، لكن الفرص المنثورة في هذا الواقع تحتاج رؤية ثاقبة تستجمعها، وتتطلب نظارة مختلفة تحيط بها، إنني باختصار أريد نظارة نُقشت على عدستها الأولى كلمـــة "إمكانية"، وعلى عدستها الثانية كلمة "الفعل".. إنها نظارة تهتف بإمكانية الفعل.

أخذت أقلب النظارات فإذا بها من صناعة خصومنا، إنهم يبيعوننا نظـــرات الـــبؤس والحرمان، ويكرسون لدينا معاني العجز واليأس، إننا نبـــصر ما يريده خصومنا، ولا نبصر ما نصنع به مستقبلنا، أدركت أن نظاراتنا ستحدد مستقبلنا، وتيقنت من حاجتنا إلى تصنيع نظارات محلي، يـــنطلق من مصانع القادة الثوار، ومن ورش المفكرين الأحرار، نظارات جديدة، تتلون بألوان المستقبل، فلا نرى إلا حركة وعزماً، ولا نبصر إلا فرصـــة ونصراً. هذه النظارات سيبيعها الكتاب والمفكرون والمدرسون والقـــادة والإعلامـــيون والفنانون وكل من هو معني باستنهاض الأمة. وسيفسرون من خلالها كل مشهد ظاهره بائس ليظهروا للناس الفرص الكامـــنة، فـــبين سيل الأمطار ترجل شاب ذكي ليبيع الناس المظلات، فأبصر في السيل فرصة، وعند اشتداد الحر تكسب بائعو المرطبات الذين يقتاتون من الحر ويعتبرونه موسم خير وبركة، وبين مطارق الأعداء على جسد أمتنا تجلت بطولات أمة لن تموت.

لـــن نعزف ألحان العذاب بل سنشدو بأغاني كسر القيود، لن نكتب عن الجراح بل سنغزل انتفاضة المجروح ونعرض للدنيا بسمته،

لـــن نـــصور دمعة الطفل بل سنسلط الكاميرا على قبضته المشدودة الغاضبة.

إن لكـــل مـــشهد أكثـــر من زاوية للنظر، فعلينا أن نختار بين الـــزوايا، وأن نحدد مصيرنا باختيارنا، إما أن نكرس اليأس فنلجأ إلى تـــصوير الهـــواة الـــذي يلتقط صورة لظاهر المشهد، أو نستجلب اللقطـــات بحرفية من زوايا صعبة تنطق بالقدرة على الفعل. فالقائد مصور محترف بالدرجة الأولى، ويأبى لقطات الهواة التي يتمكن منها كل إنسان.

بعد أن خرجت من المحل، تصفحت جريدة في الطريق، وجدت أحـــد الكـــتاب يتحدث عن الأمة الغرقى والمنكوبة في مقال طويل، ويتوسل ويتسول من أجلها... فضحكت في نفسي.. وأشفقت على هؤلاء الذين يلبسون نظارات مكتوباً عليها.. "يا لهوي"(*).

(*) تعبير في اللكنة المصرية عن قلة الحيلة والعجز.

الطريق طويل

طريق طويل... أم نفس قصير؟؟!!

عندما كنت أسبح في طفولتي، كان الإعياء يصيبني قبل أن أصل إلى نهايـــة حمام السباحة، وأشعر أن المسافة التي أقطعها طويلة، لكنني عندما كبرت صرت أقطع المسافة بسهولة ذهاباً وإياباً.

وعـــندما كنا نلعب في فناء المدرسة، كنا نقيم مسابقات العدو بـــشكل مـــستمر، وكـــم اختبأنا وراء الأشجار، ثم كبرت وزرت مدرستي، فتعجبت من صغر فنائها، وضآلة أشجارها، وخُيل إلي أنه من المستحيل أن نكون عدونا ولعبنا فيها واختبأنا وراء تلك الأشجار يوماً من الأيام.

وعندما نرى أمة تحاول أن تقطع أشواطاً على طريق تقدمها، ثم يـــنهكها التعب، ويتسلل إليها الإحباط متستراً بمقولة "الطريق طـــويل.. وحـــسبنا أن نقطع فيه خطوة". فإن هذه القضية تحتاج إلى وقفـــة، فهل فعلاً الطريق طويل؟! إذا كان هناك طريق طوله 20 كـــيلو متـــراً، هل يعتبر طويلاً أم قصيراً؟؟!! إذا كنت تقطعه بـــسيارة بـــسرعة مائـــة كيلو متر في الساعة فسيستغرق الوقت 12 دقـــيقة، أما إذا قطع سيراً على الأقدام فربما يستغرق ما يزيد علـــى الـــساعتين، بالإضـــافة إلى الإجهـــاد. فكـــيف نحدد إذا كان الطريق طويلاً أم قصيراً؟؟ وهل الطول والقصر نسبي بحسب وسيلة العبور؟؟!!

أرى أننا نسير في طرق محددة المسافة، إلا أن عقولنا تبرر لنا أحياناً عدم المسير، فترينا إياها طويلة، فطريق التحول سلكته أمم في قرون مثل الفرنسيين قبل أن يطلقوا ثورتهم، وسلكته أمم أخرى في عقود مثل الصين رغم تشبث التحديات بها. وكلا الدولتين صنعتا نهضة، فأي الطريقين نسلك؟؟ طريق القرون أم طريق العقود؟؟وفي الوقت الذي نرى فيه أحزاباً ألمانية قديمة تحاول أن تقطع الطريق الطويل، نجد هتلر(*) – رغم أنه نمساوي وليس ألمانياً –يلتحق بعدهم بنفس الطريق قادماً من النمسا، لكنه يصل قبلهم ليطبق برنامجه، بعد أن تملكه حلم ألمانيا القوية. إننا إذا استوعبنا ذلك جيداً أدركنا أن الطول والقصر هو أمر نسبي، بحسب عقل الناظر، وحالته النفسية، فإذا سرنا في الطريق بعقلية ونفسية وطاقة الأطفال، فسنجد المسافة طويلة وأنفاسنا قصيرة، وستعيقنا بحار الأخطار العميقة عن التنفس وتغمرنا إلى أذننا، وستعجز أعيننا عن رؤية المشهد الواسع الممتد من كل زواياه، أما إذا سرنا في نفس الطريق بعقل استراتيجي، يستمد قوته من قوة العلم، وبرغبة حقيقية في قطع الطريق، ونفس طويل يهزأ بالمسافة، فحتماً سنراه قصيراً، ليس لأن المسافة قصرت، ولكن لأننا نعدو سريعاً، وإذا أطللنا على مشهد التحولات فسنرى الأوضاع مختلفة، ليس لأن تعقيد المشهد واتساع أبعاده تغير، وإنما لأننا صرنا أطول قامة وأحد بصراً فتمكننا من رؤيته بوضوح.

(*) تم استدعاء نموذج هتلر كمثال للإصرار والتحدي، وهذا لا يعني بالضرورة الاتفاق مع الأفكار والبرنامج والممارسات السياسية التي مارسها، لكن من المثير أن حامل الجنسية النمساوية يحلم أن يحكم ألمانيا، ثم يحكمها ويحصل على الجنسية الألمانية.

إن تـــرديد مقولة "الطريق طويل" أشبه بمسكن أو مخدر يسبب مـــناعة ضـــد الفعل، خاصة إذا تم توريثها على اعتبارها مسلمة من مـــسلمات التحول، وأغنية تدندن بها الأجيال، وحكايات تغذى بها عقـــول الأطفـــال، فلا تتطور الأفكار لأن الطريق طويل، ولا تتغير الاســـتراتيجيات لأن الطريق طويل، ولا تُقدح الأذهان للبحث عن بـــدائل تعينـــنا على التسلل إلى المستقبل المنشود لأن الطريق طويل، ويجـــب أن لا نتطلع إلى نصر أو نستعجله الآن، وبالطبع لأن الطريق طويل.

إن نهايـــات الطـــرق لا تزحف إلى السائرين ببطء، وإنما يعدو نحـــوها العـــداءون، الـــذين يوقـــنون أنهم في سباق، وأن الزمن لن ينتظرهم، فثمة متسابقون آخرون على الطريق. أليس من العجيب أن العلماء الذين فكروا في الصعود إلى القمر لم يروا المسافة بعيدة؟! كان مـــن الممكن أن يقولوا كيف نقطع هذا الطريق الطويل بالسيارة أو الطائـــرة، لقد اخترعوا الآلة التي تقلهم إلى مبتغاهم، لأنهم قرروا في داخل أنفسهم أن الطريق يمكن قطعه، وأنهم حتماً سيصلون، واليوم صار الذهاب إلى القمر وإلقاء نظرات على المريخ هواية يمارسها رواد الفـــضاء المغمـــورون، لقد عُبد الطريق، لأن مجموعة تجرأت عليه، وأيقنت بإمكانية الفعل.

بعـــض الناس يتخيلون أن المشكلة في الطريق، وهؤلاء لن يرونه إلا طـــويلاً، والبعض الآخر يدرك أن المشكلة في عقله ونمط تفكيره وحجـــم استعداداته، والطريقة التي اختارها للسير فيه، وهؤلاء وإن أخفقـــوا الـــيوم فغداً سيقطعونه، ويوماً ما سيراهم الآخرون يطئون بأقدامهم خط النهاية.

إلى الواقفين في الطابور

ثمة خيارات أخرى

بينما أنا ذاهب لأشتري تذكرة ركوب مترو الأنفاق؛ إذ بي أفاجأ بطابور طويل، وكلما أتى فرد لشراء التذاكر ينظر مندهشاً لطوله ثم يقف تلقائياً فيه، بالرغم من وجود شباكين آخرين لشراء التذاكر لا يقف أمامهما أحد، كأن الجميع يقول في نفسه: "بالتأكيد لا تصرف تذاكر من هناك... إذا كانت تصرف لما كان كل هؤلاء مصطفين بهذه الطريقة في طابور واحد".

ذهبت إلى أحد الشبابيك الخاوية من البشر، فوجدت الموظف يبيعني التذكرة، فإذا بالسيل المنهمر يخرج من الطابور الطويل - لما رأى التذكرة في يدي - ليأتي على الشباك الذي وقفت عنده. فقد أدركوا أن البيع متاح في الشبابيك الأخرى.

ولعل الناس تحب الأماكن التي اكتشفت من قبل، وتحب أن تأنس بالكم البشري، على اعتبار استحالة أن تكون كل هذه الجموع على خطأ، وحتى إن كانوا مخطئين، فلا بأس من قبول وحدة المصير.

أما قادة التحولات فيتميزون بأنهم لا يقفون في ساحة مزدحمة، لأنهم لن يضيفوا عليها إلا أشخاصاً آخرين يأنسون بالزحام، لذلك نجدهم يبحثون عن الفرص الكامنة في الطرق غير المكتشفة، ويرون أن من سار خلف الناس لن يصل إلى أبعد مما وصل إليه الناس، فيأنسون بالوحدة، ويتصفون بالتفرد، وهم الذين يصنعون النقلات

النوعية، خاصة عندما يحررون عقول الناس، ويقنعونهم أن هناك طرقاً أخرى يمكن السير فيها.

أيقـــنت أن الكثير من معطلات تقدمنا ليست إلا نتاج عقولنا، وأنمـــاط تفكيرنا، ورغبتنا في الوقوف في الأماكن المزدحمة، والتهيب من اكتشاف السبل الجديدة.

إن المـــنطق يقول أنك إما أن تظل أسير تجارب الماضي، وتابعاً لمحاولـــة مـــن ســـبقك، وتقف بدورك في طابور طويل، أو تجرب اكتشاف سبيل جديد ربما يقود إلى حلول، فإن أخفقت في اكتشاف السبيل، فالطابور موجود، وهو خيار قائم، وربما يصل الواقفون فيه إلى مبتغاهم ببطء، وإن نجحت ساهمت في إيجاد مسار جديد يسهل الحركة ويختصر الزمن.

إن المجـــتمعات الـــتي تـــسعى للنهوض تبذل جهدها في تلمس الطـــرق، ويبدع قادتها في إيجاد البدائل، وهم المعنيون بأن يحلوا أزمة الحركة البطيئة في عصر السرعة، فتتسارع وتتوالى المبادرات التي ربما قادت إلى حل، فنرى مجتمعات حية تأنف الاستسلام وتعشق المحاولة، أما ما يدهش فعلاً في مجتمعات أخرى، مراقبة قادتها للطابور الطويل، بـــل وتنظـــيمه، ثم معاقبة من تسول له نفسه الخروج منه لاكتشاف المستقبل والبحث عن مخرج.

استراتيجية التحليق

سنصنع صاروخاً ثم نفككه

عندما نسافر إلى بلد ما فإننا نستقل طائرة، وبوصولنا إلى البلد الـــذي نريد نترك الطائرة ونستقل السيارة، دون أن نبكي على فراق الطائرة وعدم استصحابها معنا في السيارة.

وعندما يذهب شخص إلى مكان ما عبر وسيلتين من وسائل المواصـــلات، كـــأن يتنقل عبر سيارة أجرة ثم ترام؛ فإنه لا يعير الوسيلة الأولى اهتماماً إذا ما أنهت مهمتها، ولا يشغل باله إلى أين ذهـــبت، أو مـــن استقلها بعده، أو هل أصابها العطب أم لا تزال تعمل.

إن الوعي بوسائل المواصلات التي تقودنا إلى المستقبل أمر في غايـــة الأهمية، فرحلة المستقبل تتطلب قطع مراحل بوسائل شتى، تلـــك الوسائل التي نطلق عليها "أدوات الفعل"، ويعد الانتباه إلى فـــنون إدارة أدوات الفعل من صميم أولويات المتصدين للتغيير في أي مجال.

فـــربما نؤسس مؤسسة لهدف، ثم نغلقها بعد أن تؤدي دورها، لنؤســـس أخرى تقوم بمهمة مختلفة. وقد تؤسَّس حركات وجمعيات وأحـــزاب لتحقيق نقلة في مجتمع في مرحلة ما، لكنها لا تصلح لأن تـــؤدي دور المـــرحلة التالـــية، ويكون استصحابها في تلك المرحلة كاستـــصحاب الطائرة في السيارة، وقد يكون التحالف مع جهة ما

أمـــراً ضرورياً في فترة، وفي فترة أخرى يجب فض هذا التحالف، إن بـــناء المؤسسات وإقامة التحالفات كلها أدوات فعل يمكن أن تصدأ بعد فترة، وأدوية للمجتمعات قد تقتل إذا انتهت صلاحيتها.

كـــم أســـعد بـــرؤية الرشاقة تتجلى في تفكير القادة، وهم يناورون الواقع، ويعجزونه بأدواتهم الخلاقة، ويتنقلون بينها بشكل مذهل، ولا يرون بأساً من كسر أداة استعملوها من قبل، بعد أن صارت ضارة أو معيقة، إنهم لا يتعاطفون مع أدواتهم، بل يتغزلون في أحلامهم، ولا يبكون وسيلة أدت دورها؛ بل يتخوفون من أن يخـــذلهم وزهـــم عن الإرتقاء، فيتخذون من استراتيجية التحليق معـــراجاً نحو المستقبل، أليس الصاروخ ينطلق من الأرض بكامل أجـــزائه بقوة دافعة، ويتخلص تدريجياً من جزء من هيكله مع كل مـــرحلة حـــتى يخـــف وزنـــه وتزداد سرعته ليتمكن من اقتحام الفضاء؟؟!! فكل جزء من الهيكل له وظيفة في مرحلة ما، لكنه في مـــرحلة أخـــرى يصبح عبئاً وقَيْداً، لقد طور العلماء هذه الآلية وأبدعـــوا الصاروخ متعدد المراحل من أجل الرحلات الطويلة(*)، وهـــم يتـــشبه القادة فيجيدون لغة المستقبل، ويعلمون الجيل فن إطلاق الصواريخ، ويعيدون تعريف الهدم والبناء.

(*) كـــل مرحلة في الصاروخ متعدد المراحل لها محرك صاروخي ووقود دافع. وقد طـــوَّره المهندســـون مـــن أجل الرحلات الطويلة خلال الغلاف الجوي وإلى الفـــضاء. نظـــراً للحاجة إلى صواريخ تستطيع أن تصل إلى سرعات أكبر من سرعات الصواريخ ذات المرحلة الواحدة. ويصل الصاروخ متعدد المراحل إلى ســـرعات أعلـــى نتـــيجة نقصان وزنه بإسقاط مراحل (أجزاء) تم استعمال وقودها. وتبلغ سرعة الصاروخ ذي الثلاث مراحل تقريبًا ثلاثة أضعاف سرعة الصاروخ ذي المرحلة الواحدة.

يظـــن البعض أن البناء يعني بالضرورة استخدام نفس الأداة، فتتـــردد مقولة "لم لا نبني على ما سبق!!"، وأرى أن جوهر البناء يعـــني البـــناء علـــى نـــتاج استخدام هذه الأداة من نجاحات أو إخفاقـــات، وربما تطلب البناء استمرار استخدامها أو تطويرها أو تـــدميرها. فهدم بعض الأدوات ربما يكون هو سبيل البناء، والبناء علـــى الأدوات المتهالكة هو عين الهدم. فتأسيس ناطحة سحاب يـــستوجب إزالة البيت المتواضع، أما تأسيسها فوق سطحه فيعني كارثة محققة.

عسكري المرور

إعادة تعريف الفعل

نظرت إليه... تساءلت... لماذا يقف في مكانه؟!! لم لا يركب سيارة وينطلق؟؟!! لم يكتفي بالإشارة؟؟!! متى يتحرك؟؟!!

ثم أعدت التفكير.. ربما ليس مطلوباً من عسكري المرور الذي ينظم الحركة ويرشد التائهين أن يترك مكانه.

إن العقل يميز بوضوح بين عسكري المرور والسائق، بين الإشارة التي تنظم الحركة، وبين السيارة التي تتحرك، إننا نميز بدقة بين واجبات كل منهما، فلا نطالب عسكري المرور الذي يستخدم ذراعه وصفارته بأن يقود مثلنا، لم نسمع أحداً يصرخ فيه: "متى تترك التوجيه وتنزل إلى القيادة بنفسك؟؟!!، فلو نزلت إلى ساحة القيادة لاكتشفت أن العملية ليست يسيرة، ولتوقفت عن رصد المخالفات والأخطاء"، لم نسمع أحداً يعاتبه ويقول: "حتى متى تكتفي بالإشارة وتحجم عن القيادة والفعل؟؟". لم نر شخصاً يسأله عن عنوان، ثم يستاء منه لأنه لن يرافقه في مسيره، بل يهديه كلمة الشكر لأنه دله على الطريق. فما يقوم به لون مهم من ألوان الفعل، لولاه لاضطرب المرور، ولحار الناس في أي السبل يسلكون.

ولا يتساءل العقل كذلك عن مدى إجادة العسكري أو عجزه عن قيادة السيارات، لأن مهمته تعتمد على مدى معرفته بالطريق،

وقدرتـــه على التوجيه، ولا ترتبط بمدى كفاءته في الجانب التنفيذي (التحرك بالسيارة)، فالتنفيذ دور، والتوجيه دور آخر.

علـــى العقل أن يستوعب أهمية فكرة البحث والتنظير بمثل هذا الوضـــوح في اســـتيعابه وقبوله فكرة اكتفاء عسكري المرور بدور التوجـــيه، وكمـــا أنـــه يقدر دور العسكري في تسجيل الغرامات للمخـــالفين، فعليه أن يتفهم ضرورة تفرغ مؤسسات لرصد وتحليل الـــنجاحات والإخفاقـــات. إن استيعاب العقل وتفهمه العلاقة بين التنظير والتنفيذ أساس لتقوية المجتمعات وتقدمها.

ففـــي المجـــتمعات القـــوية يُقَـــدَّر الجهد الذي تقوم به مراكز الدراسات وأهل الفكر والنظر، فيهنَئون ويقدَّرون، وتقام لهم المحافل لتشجيعهم على الرصد والبحث، وتدفع لهم الأموال من أجل تطوير هذه الصناعة العملاقة. فلا يدعوهم عاقل لترك هذا الدور والانتقال إلى التطبـــيق، لأنهـــم ليسوا مطالبين بالضرورة بالنـــزول إلى ساحة الفعل بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، من إنشاء حزب أو جمعية الخ. فما يقومون به يُعد من أساسيات أي فعل، فعلى ضوء نظرياتهم تولد الحـــركة، ومن وحي أفكارهم يستلهم المبدعون التنفيذيون مسارات للحـــراك، ومن محاولات التنفيذيين التطبيقية تسمو النظريات، ومن تراكم رصد النجاحات والإخفاقات تتطور الأفكار.

لـــذلك نـــرى تـــنافس المؤسسات الفكرية في الخدمة الراقية، والجـــودة العالـــية، والعلمية المنضبطة في تقديم الرأي لكل صاحب مـــشروع أو حـــراك تنفـــيذي. فتنمو في المجتمعات عقول، ترشد الحائرين، وتقدم البدائل، وتعزز الوعي بمعنى كلمة الفعل، الذي يبدأ بنظرية يرتكز عليها تطبيق.

نسمع أحياناً مقولات مفادها أن التنظير وحده لا يكفي، وهي وإن صحت في كون المجتمعات تحتاج التنظير والتنفيذ حتى تتقدم، فإنها مخطئة إذا تصورت ضرورة أن يمارس الفعلين نفس الشخص أو الجهة. فتوجيه السؤال إلى المفكر الاستراتيجي والمؤسسة الفكرية: "إلى متى تظل في التنظير"؛ أشبه بعتاب عسكري المرور.. "إلى متى تكتفي بإرشادي للطريق، متى تستأجر سيارة لتوصلني"!!

إننا نعيد تعريف الفعل، فالتنظير فعل، كما أن التطبيق فعل، ولكل من هذين الفعلين أدواته ورجالاته واحتياجاته، فبدون نظرية عمل يختل التنفيذ، وبدون النظر يصعب تحديد ورؤية المسار.

إن مجتمعاتنا مليئة بالطاقات الخلاقة، ومفعمة بالهمم الوثابة، وحين تلتقط الإشارة، وتتمكن من رؤية الاتجاه، ويضاء اللون الأخضر، سنرى أروع مشهد، لون الإشارة الخضراء، يمتزج بلون الخضرة والنماء الذي يرسمه موكب صناع التحول، تتقدمه المؤسسات ومجموعات العمل المتألقة، وسيظل عسكري المرور يرقب الموكب، مكتفياً بالإشارة، لن يترك مكانه، ولن يُفتَن بسحر المشهد، سيسجل التجربة في دفتره، ويحكي الحكاية لتستفيد منها الأجيال القادمة، وسيبدع في تدريب الآخرين على فن التوجيه، ومعرفة أسماء الشوارع، ليرشد الحيارى في الأزمان التي يعاني فيها الناس أزمة الطرق المسدودة.

انتبه... إنه فوق عينيك

تعرف على أدواتك

أجهدني البحث... وأعياني التفكير... ما الذي أسكُبه في شلال ثـــورة الأفكـــار... أحضرت كوباً من الشاي لعله يلهمني الفكرة، قررت ألا أكتب، وضعت أصابع كفي على شعر رأسي، ثم انداحت معـــي علـــى جبهتي في طريقها إلى أن تغطي فمي.. شيء ما جعلها تتـــسمر فجأة في مكانها، وأشعل نور الفكرة في عقلي، إنه حاجبي، ذلـــك الخط الحدودي من الشعر الذي رُسم في صحراء وجهي من جبهتي وحتى فمي، ليفصل بين عقلي وعيني.

نظـــرت في المرآة... تساءلت... ما قيمته؟!! ولماذا يتربع فوق عـــرش العين؟؟!! تملكني الفضول، لم أعتد أن أجهل نفسي إلى هذا الحـــد، إنـــه يلازمني منذ مولدي، لكنني لم أفهم وظيفته، أو أحاول البحث عنها. أخذت أبحث عني في الموسوعات الطبية، محاولاً إدراك ذاتي واكتشاف أدواتي.

علمت أن الحاجب وضع فوق العين ليمنع اضطراب الرؤية، إن وظيفته هي إعادة اتجاه المواد السائلة من العرق أو مياه الأمطار بعيداً عن العين، فمن الممكن أن يغير الماء داخل العين الخواص الإنكسارية لها مما يجعل الرؤية مشوشة غير واضحة.

أطللت من النافذة لأتنفس الهواء الطلق... الأمطار متدفقة.. الـــسيارات تمـــر ذهاباً وإياباً... تسمرت مرة أخرى، فقد أخذت

مَسَّاحات السيارات نفس شكل الحاجب، واقتدت بلونه، واستعارت وظيفته لتطيح بمياه الأمطار المعيقة للرؤية، وتراقصت في نشوة يميناً ويساراً، ولم لا وهي التي تحول دون حدوث الكوارث المرورية!!

وجدت الحاجب يسوس الحياة، أليس عجيباً أن يختط مايسترو الأوركسترا نفس النهج، فيستخدم حاجباً خشبياً يبين به للعازفين الطريق، ويعطي الإشارة للآلة الساحرة التي ستبدأ عزفها.

إننا نحتاج في كل بيت ومؤسسة ومجتمع إلى حاجب، ليساعد على وضوح الرؤية، واكتشاف الطريق.

قالوا قديماً: "العين ماتعلاش على الحاجب"، وهو مثل صحيح، سيثمر طاقات عظيمة يوم يطبق في أرض الواقع، لنرى الرؤى والمسارات تُقَوَّم، ونلمس رعاية لأهل الفكر والنظر الذين يمثلون حاجب المجتمع، وصمام الأمان الذي يضمن قوة الإبصار.

تستطيع أن ترى رجلاً لا يغطي الشعر رأسه، لكنك لا تطيق رؤية إنسان بدون حاجب، إنه تشويه فظيع للخلقة، كذلك يحدث تشوه الفعل في الواقع إذا غابت الرؤية أو تشوشت.

وجدتني أسير الإعجاب بحاجبي وملهمي، ورأيت للناس فيه مآرب أخرى، فبين مستخدم له في إظهار غضبه فيُميل حاجبيه لأسفل ليتصافحا ببرود، إلى آخر يعلم حاجبيه الرقص ليغازل بهما صعوداً وهبوطاً، وثالث يرفع أحدهما ويبقي الآخر مستقراً معبراً عن الدهاء والحنكة والإصرار. إن الحاجب يعمل هنا ككشاف للانفعالات، وكوسيلة تفاهم صامتة، إنه أحد الأدوات اليومية التي لا يستغني أحد عنها.

والمجتمعات التي تحررت وقويت لم يكن إبداعها في قدرتها على اختراع أدوات جديدة تمكنها من التحول، لكنها فهمت ذاتها جيداً، وأدركت أن أدواتها بين أيديها، إنها أفكار طموحة في العقل، وإرادة في القلب.

إن أدوات الـــتحول في المجتمعات ليست بعيدة المنال، بل هي أقـــرب مما يتخيل الكثيرون، إنها قريبة منهم قرب الحاجب من العين، وقـــريباً سيشعرون بوجودها، ثم يتحسسونها بأيديهم، ثم يكتشفون كامن طاقاتها.

أهلاً بالمجانين

من الهلوسة... سيتشكل المستقبل

بدأت الأنفاس تتسارع... عدوت مسرعاً... قفزت فوق السور العالي... تنقلت بين السيارات المسرعة بخفة عجيبة، ثم سلمت نفسي إلى قسم الشرطة.. لم أتخيل يوماً أن أفعل ذلك... وإلى اليوم لا أدري كيف فعلت!!

قلت لصديقي بعد أن حكى قصة الهروب من مجموعة من اللصوص، "كيف فعلت ما لم تتوقع أن تفعله؟ القفز من ارتفاعات شاهقة، سرعة العدو، الخ"، فأخبرني أنه قرأ عن إفرازات يفرزها الجسم - عند الإحساس بالخطر، تمنح الإنسان طاقة هائلة عند التعرض للأزمات، قلت له: "لكنني أعتقد أنك اكتشفت هذه القدرات الخارقة لأنك لم تعمل عقلك حينها". فنظر إلي باندهاش!!

عندما يتعرض الإنسان لموقف مفاجيء ربما يجعل حياته على المحك، فإنه يتصرف بشكل عفوي، وأثناء الهرولة ورؤية السور العالي يتوقف العقل عن التفكير في التفاصيل وتحليلات الموقف، ويمتنع عن الحسابات المعقدة قبل أخذ القرار، فيصنع الإنسان ما كان عقله يوهمه أنه مستحيل، ويكتشف بعضاً من قدراته التي ربما اعتبرها خارقة للعادة.

فهل إيقاف العقل عن العمل هو السبيل إلى التطور؟؟

لابد أولاً من تحديد ما نعنيه بالعمل هنا، فالعقل إذا امتلأ جهلاً - كأن يجهل الشخص قدراته، فإنه حين يعمل يبعث برسائل سلبية عند استخدامه في التفكير، مفادها "لا فائدة من الفعل"، "أنت أضعف من أن تقوم بهذا"، لكنه إن تسلح بالمعرفة، فحينها سيؤكد لصاحبه إمكانية الفعل، وما حدث مع صديقي هو توقف دور العقل عن بث الرسائل السلبية عند الأزمة، وعن ارتكاب جريمة التثبيط، فتجلت القدرات الكامنة، لذلك أخبرني صديقي: "كنت أتصرف بشكل لا إرادي"، أي لم يعمل فيه عقله، وعندما ترك نفسه لاختبار قدراتها اكتشف عظمتها وإمكانياتها، ولعله استاء من عقله الذي طالما أقنعه أنه لا يستطيع.

إننا نلحظ أن العقل بالرغم من أنه أداة تطورت بها البشرية، إلا أنه كان أحياناً أداة تخلفها، عندما عشش الجهل فيه، فنسج خيوطاً هشة عن الوعي بالفعل وإمكانيته، وأفرخ فكرة مفادها أن قفز السور غير ممكن.

إن صناع التحولات يستعلون فوق نقاط ضعف عقولهم، فيزودونها بالعلم، الذي يؤكد إمكانية إحداث التحولات، ولا يسمحون لإفرازات الجهل من مسلمات خاطئة أن تتحكم في تصرفاتهم، إنهم يحررون عقولهم من أسر عقولهم، ويدركون أن العقل لغة يعني "القيد"، فيشرعون في فك بعض قيوده بالعلم.

ينعتون القادة العظماء والمخترعين بالجنون، لأنهم يفكرون بطريقة تختلف عمن حولهم، لكنني أرى أحد أسرار تميزهم في أن عقول الكثير منهم أخلصت في ولائها لهم، فلم تسمح لخصومهم أن

يبرمجوها، كما أشربت علماً بالقضية التي تبنوها، فآمنوا بقدراتهم، أما الآخـــرون الـــذين تصوروا أنفسهم "العقلاء"؛ فجهلهم بإمكانياتهم أقعـــدهم، وجهلهم بخصومهم أخافهم، وإن كان الجنون يعني تحرر العقـــل من قيوده بالعلم الذي يترجم إلى فعل؛ فأهلاً بالمجانين، الذين سيستجيبون للتحديات بفعل يدهش العالم، فيقفزون الأسوار العالية، ويخترقون زحام التدافع الحضاري بخفة بالغة، سلاحهم العلم، ولغتهم الهلوســـة، فمـــن هلوســـاتهم - التي لا يفهمها الناس - سيتشكل المستقبل.

الخاتمة

كانـــت هذه محاولة لتلسيط الضوء على بعض المعاني والأفكار المعنية بإحداث ثورة في العقول، وهي معان تحتاج إلى تذكير ثم اتباه ويقظة أثناء الممارسة الحقيقية في ساحة الفعل من أجل تنمية المجتمعات، وهـــي جديـــرة بأن تصل إلى كل إنسان يسعى لتغذية عقله بالغذاء النافع، وتطوير أسلوب التفكير، كما تنير ومضات في عقول النشطين والقـــادة المعنـــيين بالفعل الاجتماعي والسياسي، حتى يتمكنوا من تأسيس مؤسسات قوية تقوم على قواعد متينة، ويقوم بها مجتمع حر يحترم العقل، ويرعى قدسيته، ويستثمر في تنميته.

إن زلـــزلة العقـــول من أولى أولويات صناع التغيير، لأنها تردم الفجـــوة بـــين المـــستحيل والممكن العقلي، وهي زلزلة تناقش في المـــسلمات، وما يعتقد أنه من الأفكار الرواسي، وبهذه الزلزلة يعاد تـــشكيل العقول، ويعاد كأول تابع من توابعها إعادة تشكيل الفعل المـــيداني، لإحـــداث زلازل التحول على الأرض، وتقديم النقلات النوعية في التجربة البشرية.